روايات عبير



ربيكا ستراتون

شريك العمر



روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 84

شريك العمر

ان يشارك الانسان آخر في ماله لا يعني بالضرورة مشاركته كل شيء. لكن الحالة في هذه القصة مختلفة. فالى جانب الوطأة التي تمارسها العائلة التقليدية على جيني، او خوانيتا كما يسمونها في اسبانيا، هناك انطونيو ابن عمها في انتظارها، منذ وصولها الى المطار، وحتى آخر لحظة ... الا ان ماريا رفيقة انطونيو والمرأة التي يعتقد الجميع انها زوجة المستقبل، تستطيع لوقت طويل ان تبدد احتمال زواج جيني من انطونيو. فهل يحصل ان يكون الشريك في العمل شريكا في العمر ايضا؟

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية

THE FLIGHT OF THE HAWK

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612. Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd. Bungay, Suffolk

١ - بحاجة الى استاذ

كانت جيني فرنسيس عازمة على التمتع بالنزهة في السيارة عبر الريف الاسباني غير مكترثة للاستقبال اللذي لقيته، ولكن حديث رفيقها لم يفسح لها مجالاً لذلك. وقد بدت بعض المشاهد مألوفة برغم مضي سبع سنوات ونيف على زيارتها الأخيرة في رفقة والديها، حين كانت تلميذة لم تتعد الرابعة عشرة.

توفي والدها في حادث تحطم طائرة بعد مضي اقل من سنتين على زيارتها الأخيرة. اعدت نفسها لزيارتها هذه بمزيج من العزم والترقب، وكانت متأكدة تماماً من انها تقوم بالعمل الصحيح لكنها تمنت وجود شخص تطمئن اليه.

ولم يكن مضى على وفاة جدها انطوني فرنسيس سوى شهر او شهرين وقد وضعتها وصيته في موقف دقيق. على اثر وفاة والديها، تخلى العجوز عن حياة اسبانيا التي احبها وعاد الى وطنه للاضطلاع بمسؤولية الوصاية على جيني الى حين تخرجها من المدرسة ثم الجامعة.

تعلقت جيني بالرجل العجوز على الرغم ان معرفتها به آنذاك لم تتوطد الا في سنوات حياته الأخيرة. وقد افتقدته اكثر مما توقعت وتمنت لو كان الى جانبها اليوم ليساعدها في الأوقات العصيبة التي تنتظرها، اذ كان رجلاً صريحاً وواثقاً من نفسه حتى بعد ان تقدم في السن.

فيما كان انطوني فرنسيس يمضي اجازة عند بعض الاصدقاء في اسبانيا ولم يكن تجاوز بعد عمر المراهقة، اعجب بالبلد وبأهله الى درجة انه قرر الاستقرار والعيش فيها. وكانت ابنة مضيفه الشابة من الدوافع وراء قراره لكنه ابدى ايضاً اهتماماً بمؤسسة عائلتها لانتاج الشراب.

كان شاباً قوياً ونشيطاً يعرف ماذا يريد ويعمل بجد للحصول عليه ولم تمض فترة وجيزة حتى لنجح في تأسيس شركة مزدهرة بتشجيع من زوجته الاسبانية الشابة وشاء التكيف مع بلده الثاني تكيفاً تاما فبات يستعمل الترجمة الاسبانية لاسمه في اعماله. ولدى ولادة ابنه، كان دون انطونيو فرنسيسكو المولود باسم انطوني فرنسيس قد بنى مستقبلاً زاهراً.

وقد اصيب لوفاة زوجته الحبيبة باتريس بضربة قاسية وعاد لفترة وجيزة الى انكلترا وكان ابنه في الرابعة عشرة من العمر آنذاك. وما لبث ان تزوج من اخرى مما فاجأ من كان يعرف مدى اخلاصه لزوجته الأولى. لكن زواجه الثاني من امرأة انكليزية كان اقل نجاحاً بكثير من الأول. وبما ان زوجته هذه رفضت الذهاب والعيش في بلاده الاندلس حيث الدفء والشمس، عاد مع جده الى بلده الحبيب اسبانيا بعد سنتين من زواجه تاركاً زوجته وطفلها في مناخ انكلترا البارد.

كانت جيني تذكر جيداً موقف والدها المتحفظ والمشوب بعداء حيال جدها، ولولا اصرار والدتها لما تبودلت الزيارات بين افراد العائلة في السنوات الأخيرة وقد سر انطوني العجوز بالمصالحة هذه لكن علاقة ديسموند فرنسيس بزوجة اخيه رفائيل كانت ابعد ما تكون عن الود اذ كان من الصعب التفاهم مع امرأة ترفض القبول بأن زوجها من اصل انكليزي.

وكانت معظم الشكوك التي ساورت جيني وليدة لقائها بخالتها ثانية. لم تكن الدونا صوفيا فرنسيسكو تخفي كرهها للروابط الوثيقة

التي نشأت بين زوجها واخيه من ابيه الانكليزي. وادركت جيني ان خالتها باتت الآن تعتبرها تهديداً لمصالح ابنها.

وكان لا بد لجيني ان تدرك منطقياً ان ملكية المؤسسات تعود الى رفائيل وابنه انطونيو دون غيرهما بعد وفاة جدها، لكونهما شاركاء في العمل على ابقاء المؤسسة مزدهرة. وقد يكون ضمير العجوز وبخه في اواخر ايامه لاهماله ابنه الاصغر فعين جيني وريثة له بعد موت والديها. وها قد اصبحت اليوم شريكة في ملكية المؤسسة العائلية المزدهرة التي عمل جدها وعائلته على تأسيسها رغم جهلها التام بنوع عمل المؤسسة هذه.

ورثت جيني عن امها الاسكوتلندية شعرها الأحمر وعينيها الخضراوين وطبيعتها المشرقة والمتفائلة وطبعها الحاد، وقد قررت العمل على الاستفادة من وضعها الجديد غير مكترثة لموقف انطونيو وخالتها صوفيا الرافض منها.

كان جمالها يعد بمستقبل امرأة فاتنة في بلوغها، تماماً كما حصل لوالدتها، وهي لم تتعرض لتجاهل الرجال لها تجاهلاً مطلقاً كالذي لاقته عند انطونيو لكنها لم تكن تتوقع الكثير منه.

القت جيني نظرة خاطفة من طرف عينيها على الرجل الجالس الى جنبها يقود السيارة في الطرقات المشمسة عائداً بها الى منزله. وكانت ملامح الحفيد الاسباني تنفي وجود قرابة دم مع جده الانكليزي فلم يبق اثر لشعر العجوز انطوني الكستنائي ولا لعينيه الرماديتين في وجه انطونيو الذي كان اسباني الملامح لا يختلف عن اولئك الرجال السمر الذين رأتهم في الريف الحار حولها واعترفت جيني لنفسها بانها لا تزال تهاب انطونيو بعض الشيء.

ففي آخر لقاء لهما منذ سبع سنوات ونيف كان رجلا فتياً في اواخر العشرينيات من عمره وواضح انه لم يعرها اي اهتمام يذكر آنذاك اذ كانت تلميذة في الرابعة عشرة من العمر. وهو الآن لا بد ناهز الرابعة او الخامسة والثلاثين. واحست جيني بالضيق ذاته الذي كانت تحس

به سابقاً لدى وجوده معها.

عاودت النظر لوجه انطونيو الداكن والمتعجرف بعض الشيء واقرت ولو على مضض بجاذبيته ورجولته الصارمة فهو ورث ملامح كل من جدته الكاستيلانية (من مقاطعة كاستيلاني في اسبانيا) ودكنة بشرة امه الاندلسية، فكان هذا التمازج المذهل في طلعته وان ببعض قساوة. منح المزيج هذا انطونيو رأساً متعالياً صقري الجانب وعينين سوداوين. وكان طول قامته الشيء الوحيد الذي ورثه عن جده الانكليزي، وجسمه نحيلاً ممشوقاً كالنمر. ورأت جيني فيه مسحة من القساوة والخطورة من غير ان تدرك السبب. كان يرتدي بزة زاهية اللون فتح سترتها فبان صدره العريض الذهبي اللون من خلال قميصه الحريري الأبيض.

استيقظت فجأة من افكارها وعادت تتأمل الريف من حولها. واعجبت بالتلال المجاورة المكسوة بكروم عنب وبساتين برتقال. ثم تذكرت الاعياد والحفلات التي تقام عادة ايام القطاف وسرت لامكان الاشتراك فيها.

لم يكلمها انطونيو كثيراً منذ وصولها وقد ادركت مدى استيائه لقدومها بصفة كونها شريكاً في المؤسسة التي اعتاد ان يعتبرها ملكاً خاصاً به وبوالده الى ان فجرت وصية جده الأزمة الراهنة.

حين سمعت جيني للمرة الأولى بمضمون الوصية فكرت بالتخلي فوراً عن حصتها في المؤسسة لكنها شعرت انها مدينة لجدها بتنفيذ وصاياه فعدلت عن فكرتها. وكانت متأكدة من ان في استطاعتها العيش في اسبانيا والتعلق بها مع مرور الزمن تماماً كما حدث لجدها.

واعتبرت انها باتت قادرة على الاتكال على ذاتها وقد بلغت الواحدة والعشرين من عمرها فقررت السفر الى اسبانيا وعدم التخلي عن حصتها لعمها. كانت تفضل لو نزلت في احد الفنادق الى ان تجد منزلاً تسكن فيه بمفردها لكن عمها اصر عليها ان تنزل ضيفة في منزله

الريفي ولم تشأ رفض دعوته.

وها هي الآن مضطرة الى تحمل استياء انطونيو من الوضع وهو لم يخف عنها غذا او هكذا تراءى لها من تصرفاته. وسألته:

«انت مستاء لقدومي يا انطونيو. أليس كذلك؟».

وادركت انه فوجىء بسؤالها اذ نظر اليها نظرة حادة ثم رفع حاجبه الأسود فاحست فجأة بضآلتها وضعفها على رغم انزعاجها لقلة حفاوته. وسألها بانكليزية طلقة متكلفة بعض الشيء:

«كيف تبنين افتراضك هذا؟».

ولاحظت انه لم يبتسم اثناء كلامه مما دل على انه حمل سؤالها على محمل الجد. وقالت مبتسمة ابتسامة طفيفة:

«لأنك لم تكلمني إلا قليلاً منذ ان غادرنا اشبيليا».

وتوقعت ان يصحح لها طريقة لفظها كلمة اشبيليا كما كان يفعل في السابق وصحت توقعاتها اذ ردد اللفظ الاسباني الصحيح مقطباً حاجبيه.

وتذكرت ان الاسبان قوم لا يتهاونون مع من يتهمهم بسوء الضيافة وقال لها بصوت بارد عميق لم تتعوده فيه قبلاً.

«كنت افكر في زيارتك الأخيرة لنا. لم تسألي احداً ان يحادثك وقتذاك بل التزمت الصمت طوال فترة زيارتك».

وانزعجت جيني لملاحظته هذه فرفعت خصلة من شعرها الأحمر عن جبينها ثم رمقته معاتبة. فهي فعلاً لم تكثر الكلام في اثناء زيارتها الأخيرة وكانت لها اسبابها وقتذاك، ومن بينها انها كانت تحس بالرهبة في حضوره وحضور دونا صوفيا التي لم تكن تحبها.

واحتجت على كلامه قائلة:

«انصفني يا انطونيو. لم اكن سوى طالبة في المدرسة آنذاك وانت...».

وامتنعت عن الافصاح بأن لسانها كان ينعقد في حضوره. وايقنت انه كان يقرأ افكارها اذ رأته يبتسم، ثم رفع حاجبه من جديد

وقال:
«هل تعنين انك كنت تخافين مني؟».
وبدا كأنه سر للفكرة وايقنت جيني انها محقة تماماً في اعتباره قاسياً.
واحست بانها واثقة الآن من نفسها اكثر مما كانت عليه منذ سبع سنوات. لكنها لم تصادف رجالاً مثله من قبل. وقد زاد من ارتباكها انها شعرت بالاضطراب في حضوره الآن وان كانت قد نضجت شخصيتها. وقد حال اضطرابها هذا دون تمكنها من مقاومة حضوره المتحدي لها كما كانت تتمنى اصلاً. وقالت محتجة:
«لم اكن خائفة فعلاً. انما كنت صغيرة السن».
والتقت عيناه الداكنتان نحوها من جديد وخيل اليها انها رأت ابتسامة على ثغره. وتفحصها من اعلى رأسها المكلل بالشعر الأحمر الى فتحة قميصها فارتعشت لفجائية نظرته هذه. وقال:
«لكنك ما زلت صغيرة السن».
واحست جيني بتململ مفاجىء وحاولت ترطيب شفتيها ثم رمقته بطرف عينها وقالت له بصوت حاولت تضمينه ما استطاعت من الثقة:
«بلغت السن الكافية لاستطيع ان اتدبر شؤوني بنفسي ولا سيما في ما يتعلق بحصتي من المؤسسة».
صعب عليها الظهور بمظهر الواثق من نفسه في حضرة رجل كانطونيو وادركت انها ستلاقي صعوبات جمة في محاولتها الاتكال على ذاتها كما كانت قد ظنت. وتراءت لها الأيام المقبلة مليئة بالتصادمات بينها وبين الطرف الاسباني من عائلتها وكادت ان تتمنى للحظة لو ان جدها اورث المؤسسة برمتها الى انطونيو ووالده. لكن الأوان فات الآن للتراجع وبات عليها مواجهة المستقبل بما تملكه من قدرة وسألها انطونيو:
«هل انت عازمة على المشاركة في ادارة المؤسسة مشاركة

فعلية».
وبدا كأنه مرتاب للفكرة بحد ذاتها. فرمقت جانب وجهه القاسي والغاضب وادركت انه من الصعب جداً على رجل اسباني ان يتقبل فكرة مشاركة امرأة في ادارة مؤسسة. وقالت:
«اود المحاولة».
وانعطفت السيارة فجأة فارتمت جيني على مقبض الباب وشعرت بأنه تعمد افقادها توازنها في هذه اللحظة وبدأ قلبها يخفق بسرعة جنونية في حين حبست انفاسها ذعراً.
وانعطفت السيارة من جديد بعنف فاق انعطافها في المنعطف السابق وتمسكت مجدداً بمقبض الباب واذ بها تشعر وكأن الباب على وشك ان يفتح.
وما كادت تستعيد انفاسها حتى رأته يحدق فيها. وخيل اليها للحظة انها رأت مسحة مكر في عينيه فيما احكمت يداه السيطرة على السيارة الضخمة بسهولة وخفة.
وقال لها بصوته الناعم والهادىء الذي بعث فيها الرعشة:
«من الأفضل الا تتمسكي بالمقبض هذا فهو الذي يفتح الباب وقد تقذفين خارجاً».
وسحبت جيني يدها بسرعة ونظرت الى وجهه القاسي. كان من المستبعد جداً ان يتعمد قذفها من السيارة لكنها اضطربت واحست بخفقات قلبها تتسارع وقالت بصوت هش:
«لقد فاجأتني عند هذا المنعطف المفاجىء».
ونظر اليها مجدداً وانعطفت السيارة في هدوء هذه المرة وقال:
«هناك منعطفات كثيرة على هذه الطريق. ومن الأفضل ان تمسكي بحافة النافذة ان كنت خائفة».
«لست خائفة».
اتى ردها فورياً ولم يخل من الحدة لكن انطونيو لم يرف له جفن بل

قاد السيارة الى شفير ضيق مطل على الوادي المشمس واوقف السيارة بهدوء. نظرت اليه جيني بفضول وترقب فيما استدار في مقعده وانحنى باتجاهها. وقال في صوت رقيق:

«من الافضل ان اوفر سلامة راكبي. فمن المؤسف ان اتخلص منك الآن. اليس كذلك يا ابنة عمي الصغيرة؟».

واضطربت جيني لصوته الناعم والعميق ولضغط جسمه الذي اجبرها على الالتصاق بمقعدها. لكن الخوف طغى على غيره من الأحاسيس ورمقت وجهه الاسمر المتعجرف وقد اقترب من وجهها وراحت تلهث. وسألته بصوت خائف:

«ما . . . ماذا تفعل؟».

«اقفل الباب من اجل سلامتك».

احست بدفء نفسه على وجنتها حين تكلم. وادركت انه لم يكتف بقفل الباب بل اوصد القفل ايضاً. وهدأت الشكوك التي ساورتها لكن الاحساس بالخوف لم يفارقها.

كانت جيريز دو لا فرونتيرا مدينة مزدهرة وجميلة وكانت جيني تتذكرها من زيارتها الاخيرة لاسبانيا ووعدت نفسها بالمجيء لزيارة بعض معالمها القديمة والجميلة.

بدت المدينة قديمة، ذائبة تحت الشمس المحرقة وكان جدها اخبرها عن الحفلات الاستعراضية التي تقام فيها عادة. وادركت ان هناك اشياء كثيرة تستحق الزيارة. ونسيت للحظة قلة حفاوة انطونيو ومستقبلها غير المضمون وتشوقت الى الغد ولاحظت كما في زيارتها الأخيرة اشجار النخل الظليلة واشجار البرتقال العطرة على جوانب الطرقات المزدحمة. واعجبتها المنازل القديمة والجميلة والتي يعود بعضها الى اكثر من ثلاث مئة سنة والتي لا يزال يقطنها الكثير من احفاد بناتها.

ولم تستطع جيني الاحتفاظ بحماستها لنفسها فتأوهت:

«آه . . . ما اكثر الاشياء التي اريد رؤيتها».

والتفت انطونيو ونظر اليها ثم ابتسم ابتسامة طفيفة وكأنه سر للفكرة وسألها:

«هل تريدين التنزه؟».

فأومأت ايجاباً، وقررت الا تدع انطونيو او غيره يثنيها عن عزيمتها فقالت:

«اود رؤية معالم البلد هذه المرة. هناك الكثير من الأمور اريد رؤيتها».

«لم أعرف انك جئت لقضاء عطلة».

وادارت جيني رأسها بحركة تحد وقالت:

«كلا لم آت لتمضية عطلة لكني متأكدة من ايجاد الوقت الكافي لمشاهدة ما اريد من دون ان تتخذ زيارتي طابع الاجازة».

ونظرت مجدداً الى جانب وجهه القاسي وشعرت برغبة طفولية جامحة في معاكسته واضافت:

«لن ازعجك. فباستطاعتي المجيء بمفردي».

«بالطبع لا. لن تأتي بمفردك».

توقعت جوابه لكنها احست بلذة غريبة للاصرار الذي ابداه فقالت:

«ولم لا؟ اني قادرة على الاهتمام بنفسي على اتم وجه».

هز رأسه بعزم وانقبضت اسارير وجهه رافضة حجتها. وقال لها بصوت لم يخل من السخرية:

«اذ كنت تبغين لعب دور السائحة فسأتأكد من انك برفقة مناسبة».

وشعرت مجدداً وبقوة اكبر من قبل باحساس اللذة ذاته لاصراره. ورمقته ثم سألت:

«هل سترافقني انت؟».

«هذا جائز ويتوقف على عدد من الأمور».

«هكذا اذن؟».

وولدت تصرفاته انزعاجاً في نفس جيني لكنها امتنعت عن متابعة الخوض في الموضوع، وعادت الى الطبيعة تتأملها. وتابعت السيارة سيرها على الطرق فوق التلال المكسوة بكروم العنب واشجار البرتقال. وادركت انهما اوشكا على الوصول الى كازا دي لوس فرنسيسكو حيث بداية مشاكلها الحقيقية.

بنى آل فرنسيسكو قصر دي لوس فرنسيسكو قبل ان يشتريه انطوني فرنسيس العجوز ببضع مئات من السنين. وتراءى المنزل لها بجماله وكان ذائباً في الشمس على غرار المنازل القديمة التي رأتها في مدينة ميريز ولم يتغير المنزل عليها حتى خيل اليها للحظة ان جدها سيكون واقفاً في انتظارها كما فعل في زيارتها الأخيرة. لكنها كانت تعرف انه توفي ولم يبقى سوى عمها رفائيل وزوجته صوفيا اضافة الى انطونيو. وبذهاب العجوز فقد المنزل اخر ميزاته الانكليزية واستعاد طابعه الاسباني المجرد.

قاد انطونيو السيارة في جادة احاطت بها اشجار النخيل ثم اوقفها امام بوابة الباحة الحديدية العالية. واستطاعت جيني تذوق جمال المنزل بكامله وكان منخفض العلو مترامي الارجاء كغيره من المنازل الاسبانية له شرفات مقنطرة تدعمها اعمدة رشيقة وتكسوها الازهار.

كانت حجارة الشرق المزخرفة من اجمل المناظر وقد زادت تلال الورود وازهار الخبّازى والجريس الازرق التي غطتها، من روعتها. وفاح عبير ازهار المانوليا وعبق في الجو. مدت اشجار النخل الشامخة ظلالها على الباحة تقيها وطأة الحر. وغرقت جيني في عرس احاسيسها لكثرة الألوان والعطور ونسيت كل الأمور الاخرى لبعض الوقت.

تراءت لها نوافذ الشرف المقنطرة وكأنها عيون واسعة وداكنة وسط وجه مزهر بالورود المتسلقة. وسمعت خرير مياه النوافير المنعش والمهدىء للنفس. وادركت جيني ان انطونيو يتوافق تماماً مع هذا

المحيط الخيالي.

ترجل من السيارة واتى نحوها يساعدها على النزول وامسك مرفقها بيده القوية، ازداد قلقها لاقتراب موعد لقائها بالعائلة. ورمقت انطونيو تتوسله لا شعورياً. شعرت بالغربة التامة في هذه الحديقة بضمور جسمها وصغره الى جانب طول قامة انطونيو، وقد اعطاها فستانها الازرق الفاتح ذو الأكمام القصيرة والياقة العريضة طابعاً انكليزياً يتناقض مع تلك الحديقة الاسبانية. وذعرت لفكرة مقابلة دونا صوفيا مجدداً وتمنت لو يوجد شخص بجانبها تطمئن اليه اكثر من انطونيو.

ونظرت الى عينيه الداكنتين فوجدتهما في حال من التأمل والفضول وارتفع حاجبه كأنه ينتظر تعليقاتها وكانت جاهلة تماماً ما يتوقعه منها فاكتفت بالانتظار فيما فتح انطونيو الباب وراح قلبها يخفق بعنف.

بدت لها عطور الباحة واصواتها اكثر رومنطيقية من قبل. وفوجئت حين احست ان مرافقها كان ايضاً اكثر رومنطيقية وحسبت نفسها وهي تمشي الى جانبه وسط الباحة الظليلة بنوافيرها واحواضها واريجها المثقل بالعطور كأن يداً خفية نقلتها فجأة الى عالم الف ليلة وليلة.

وزادت البزة الفاتحة اللون التي كان يلبسها انطونيو من طول قامته وبدا رأسه المتغطرس والداكن كأنه من نسج الخيال. اعترفت في قرارة ذاتها انه لو لم يكن هو انطونيو بالذات لكانت سحرت به. وادركت للمرة الأولى انها وحيدة في عالم مختلف تماماً عن العالم الذي اعتادته. وبين اقرباء غير مرحبين بها.

وخرجت امرأة من المنزل واسرعت في اتجاهها ثم القت نظرة خاطفة على جيني قبل ان تلتفت نحو انطونيو وتعتذر منه بالاسبانية عن تأخرها في ملاقاتها لهما. اعطاها انطونيو بعض التعليمات حول ما يجب ان تفعله بحقائب جيني ثم ادخل جيني المنزل.

كان المنزل كما تذكرته: باثاثه الداكن والثقيل بين الجدران البيضاء والتمثال القديم بين ازهار البرتقال والورود البيضاء. وقد أضفى التمثال هذا جواً من الصرامة والوقار كما في كثير من المعابد الاسبانية. وارتعشت جيني ولم يكن اختلاف الحرارة بين الخارج الدافىء والداخل البارد هو سبب ارتعاشها الوحيد. وقادها انطونيو الى البهو وهو عبارة عن غرفة فسيحة باردة الجو اكتست أرضها بالبسط الثمينة وتدلت من سقفها ثريا من الحديد المليف وكانت نوافذها مشرعة ليدخل اريج الحدائق واصواتها. وعندما فتح انطونيو الباب احست جيني بخفقات قلبها تتسارع على رغم هدوء الغرفة وجمالها. فوجدت نفسها تميل الى صدره بحركة لا شعورية. ضيق انطونيو قبضته على ذراعها وكأنه يريد طمأنتها او انه شعر برغبتها في الفرار واراد بحركته هذه التعبير لها عن رعونة هذه الفكرة.

نهض عمها بسرعة وعبر الغرفة في اتجاهها ماداً لها يده مرحباً. وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة فاغمضت جيني عينيها وقد غمرتها الراحة لحفاوته، فهي وجدت اخيراً من يرحب بها بابتسامة حقيقية اعادت لها بعض الثقة.

لم يحتفظ وجه رفائيل بأي ملامح انكليزية بل كانت ملامحه داكنة واسبانية كملامح ابنه انطونيو. والفارق الوحيد بينهما في امتلاء ثغر الأب ولطافة تعبير عينيه اللتين اشرقتا لرؤية جيني. وقال لها بصوت ناعم:

«خوانيتا»

وغمرها بحنان.

كانت جيني قد نسيت اللفظ الاسباني لاسمها لكنها قبلته على وجنتيه شاكرة له حفاوته وابتسمت لأول مرة منذ هبوطها ارض اسبانيا. كانت متأكدة من أن عمها سعيد لرؤيتها فارتاحت بعض الشيء.

وقفت لبرهه تتفحصه وهو شقيق والدها من جدها انطونيو

ووجدت صعوبة جمة في تقفي اثر اي شبه بينهما. وصعب عليها التخيل ان لرجل انكليزي كأبيها صلة قرابة بهذا الرجل الأسمر الأجنبي وان اولئك الثلاثة هم أقرباؤها الوحيدون من جهة والدها.

وسألها رفائيل بقلق:

«هل استمتعت برحلتك».

وعادت جيني بافكارها الى الواقع لكنها ادركت انه توقع ان يجيبه انطونيو عن سؤاله فابتسم انطونيو ورمق جيني وكأنه يسألها رأيها ثم قال:

«كانت الرحلة هادئة تماماً».

وضحك رفائيل ثم قال:

«لم تعتادي مناخنا بعد يا خوا... كلا سأناديك جيني».

وامسك بيديها ثم نظر اليها لحظة وكأنه يحاول ادراك امر ما، ثم استطرد، بصوت هادئ:

«انك تذكريني بوالدتك ايتها الطفلة. ولقد اصبحت امرأة شابة في غاية الحسن».

«شكراً يا عمي رفائيل».

سرها مديحه لكنها لم تستطع ان تفهم لماذا رمقت انطونيو هذه اللحظة بالذات فرأت في عينيه بريقاً ضاحكاً فارتعشت فجأة.

وسألها عمها:

«لا بد انك حطمت قلوب الكثيرين من الشبان في انكلترا. أليس كذلك يا جيني؟».

وضحك لفكاهته.

اعتاد تكلم الانكليزية منذ الصغر اضافة الى الاسبانية بعكس انطونيو الذي كان يفضل تكلم الاسبانية مما يفسر التكلف الموجود في انكليزيته. واحست جيني بعفويتها الطبيعية لانها احبت عمها فارتاحت لهذا الأمر، برغم ارتيابها من بقية افراد الأسرة.

واجابت بالنفي ضاحكة:

«لا اظن اني حطمت قلوباً كثيرة برحيلي. لكن لربما افتقدني بعض الناس، لوقت قصير في كل حال».

«يا لتقلب الشباب».

وامسك رفائيل بذراعها وقادها الى حيث جلست دونا صوفيا مستقيمة الظهر على كرسي قديم وجميل، وقد بانت عليها علامات الاستياء والقساوة كما توقعت جيني. فعاود قلبها الخفقان بتوتر. وخاطب رفائيل زوجته قائلاً:

«عزيزتي صوفيا انظري كيف ان جيني اصبحت حسناء جميلة مذ رأيناها لآخر مرة. أليس كذلك؟».

لم تبتسم ملامح دونا صوفيا الارستقراطية الداكنة بل اكتفت باحناء رأسها للحظة ثم مدت يدها وقالت بصوتها البارد.

«تغيرت كثيراً يا خوانيتا».

ولاحظت جيني ان عمتها لم تتغير كثيراً مع مرور الزمن سوى انها ازدادت قساوة، ولاحظت عينيها تتفحصانها بعدائية وهي التي لم تحب جيني قط في حياتها حتى عندما كانت طفلة وقد ازداد كره دونا صوفيا لها لكونها ابنة ابيها. واتضح لجيني ان دونا صوفيا لا تكتفي باعتبارها من الاقارب غير المرحب بهم بل تعتبرها غريبة جاءت لاغتصاب ملكية زوجها وابنه.

ابتسمت جيني عازمة الا يقلقها استقبال عمتها البارد وقالت:

«انا سعيدة بالتغيير هذا يا عمتي صوفيا».

وتذكرت جيني لتوها ان دونا صوفيا تكره ان يناديها احد «عمتي» ولا تتحمل حتى الترجمة الاسبانية لكلمة عمة وقالت بصوت بارد:

«في اللغة الانكليزية كثير من الكلمات القبيحة، لكن القليل منها يضاهي قبح كلمة عمتي. . . وارجو الا تناديني بها ثانية يا خوانيتا».

اضطربت جيني لعدائيتها فعضت على شفتها ثم رمقت عمها

متوسلة. لم تكن راغبة في افتتاح فترة بقائها في المنزل بمشادة مع عمتها لكن سيطرتها على مزاجها الحاد ستصعب اذا تمادت عمتها في عداوتها لها.

وخاطب رفائيل زوجته بصوت هادىء قائلاً:

«عزيزتي صوفيا ليس من العدل ان تطالبي جيني بتكلم الاسبانية وهي لم تتعلمها بعد. علينا التحلي بالصبر ومساعدتها على تعلم لغتنا. الا توافقين؟».

واكتفت زوجته باحناء رأسها مذعنة لكن جيني نظرت الى عمها بفضول وقطبت حاجبيها، اذ تكهنت انه حمل كلامه اكثر من مجرد الدفاع عنها فسألته:

«كنت جاهلة انه يجب ان اتعلم الاسبانية. اظن مع الأسف اني لست بارعة في تعلم اللغات».

كانت تتوقع ان يجيبها عمها لكنها فوجئت بصوت انطونيو البارد والخافت يقول لها:

«اذا كنت راغبة بالمشاركة في ادارة المؤسسة كما تدعين فعليك اذن تعلم الاسبانية».

وتساءلت جيني عما اذا كان تعلم الاسبانية هو احد الحواجز الكثيرة التي ستعترض طريقها. لكنها نظرت الى انطونيو نظرة تحد وقالت بصوت خافت ولكن صارم:

«لا ارى ضرورة لتعلمي الاسبانية. كان جدي انكليزياً وانتم تتكلمون جميعاً الانكليزية».

وتبادل انطونيو وأبوه نظرة خاطفة لكن معبرة ثم نظر اليها بتعجرف وقال:

«اعتاد جدي مخاطبة العمال بالاسبانية».

وابتسم ابتسامة عبرت عن سروره للصعوبات التي تكهن بان تلاقيها جيني في اثناء تعلمها الاسبانية. ثم تابع.

«والأفضل لك ان تقتدي بجدك يا ابنة العم الصغيرة».

ولم تكن جيني متأكدة من كونها تحب مناداته لها بـ«يا ابنة عمي الصغيرة». التي لم تخل من الازدراء ام لا، فظهرت الريبة على وجهها وسألته:
«ولنفترض اني عاجزة عن التعلم؟».
ورأته يبتسم من جديد وكأنه يستخف بشكوكها:
«عاجزة؟ لا يمكنك ان تكوني غبية الى هذا الحد».
احمر وجه جيني وانقبضت يداها غاضبة ونظرت اليه بعينين خضراوين برقتا ثم قالت له بصوت ارادت تحميله اكبر مقدار من الاحتقار:
«لست غبية انما لست بارعة في تعلم اللغات»
«آه، فهمت».
وراح انطونيو يداعب ذقنه فتراءى لها وكأنه استاذ مدرسة صبور يواجه تلميذاً عنيداً، وكادت ان تقهقه ضاحكة لكنه اضاف:
«اذن، ان كنت عاجزة عن تعلم الاسبانية فلن تستطيعي المشاركة في ادارة المصنع يا جيني. ولهذا السبب انصحك بتعلمها. اما اذا رفضت...».
ورفع كتفيه معبراً عن الاستسلام.
ادركت جيني ان مشروع تعلم الاسبانية لربما اخفى محاولة لارغامها على التخلي عن حصتها في المؤسسة فنظرت اليه مجدداً بتحد وقالت:
«سأتعلم . ان كان الأمر ضرورياً عندما يحضر الاستاذ».
وتشابكت نظراتهما للحظة ثم رفع انطونيو حاجبيه وابتسم قائلاً:
«اطمئني لهذا الأمر فأنا استاذك».
ونظرت جيني الى عمها متوسلة لكنه اكد لها:
«انطونيو استاذ ممتاز يا جيني».
وابتسم ثم امسك بيديها وقال:
«ستعتادين اساليبنا في وقت قصير يا طفلتي. لا تقلقي».

وابتسمت جيني مرتابة ثم رمقت ملامح استاذها الداكنة والصقرية.
وادركت مقدار التحدي الكامن في تعلمها لغة جديدة على يد شخص يستخف بمقدرتها مثل انطونيو واحست بلهفة لما هو مقبل وقالت بتحد:
«حسناً سأتعلم الاسبانية».

٢ - صناعة . . الحب

ارتابت جيني حين علمت ان عمّها لن يرافقها في زيارتها الاولى للمصنع وتمنّت لو انه اصرّ اكثر مما فعل حين عرض عليها القيام بدور الدليل لكنه كان رجلاً لطيفاً ومذعناً لا يستطيع مقاومة قرارات عائلته الصارمة. وقد ورث انطونيو قوة ارادة والدته واعتاد التصريح عما ينوي عمله ثم المباشرة في تنفيذه. وفوجئت جيني بانه لم يعد يذكر دروس الاسبانية ثانية ولم تكن راغبة قطّ في تذكيره بالامر.

امضت يومها الاول في المنزل الريفي تستمتع بالحدائق الغناء وتتكلم مع عمها عن جدها الذي احباه كثيراً. وتجنبت لقاء عمتها قدر المستطاع لا لانها تكرهها بل لأن عمتها لم تشجعها على التقرّب منها برغم استعدادها هي اكراماً لعمها. وتشبثت دونا صوفيا بتحفظها ولم تكلمها الا عند الضرورة. في اليوم التالي لوصولها جلسوا يتناولون الافطار الاسباني التقليدي واعلن انطونيو انه ينوي مرافقة جيني لزيارة مصنع انتاج الحصير ورفع رفائيل كتفيه مذعناً لقرار ابنه وقال بصوت هادىء:

«كنت انوي مرافقة جيني بنفسي. لكن ان كنت تفضل انت مرافقتها يا طونيو فلك ما شئت».

وحاولت جيني الاعتراض فقالت:

«لكن . . . ».

وشرعت تنقّل نظرها بين الابن والاب وكانت تخشى الانفراد

بانطونيو لمدة طويلة لكثرة ما كان هذا يربكها.

وقاطعها انطونيو مخاطباً والده:

«اودّ الاطلاع على مدى تعليم جدي لجيني عن صناعة الحصير».

واجابته جيني من دون تردد:

«لا اعرف شيئاً عنها. ولم يكن جدي يكلمني عن اعماله حين كنا نلتقي، بل كنا نتحدث عن مسائل اخرى».

ثم رمقت انطونيو وتابعت:

«في اي حال لا اظن ان من المهم ان اعرف شيئاً عنها».

ورفع انطونيو حاجبه الاسود وكأنه كان يتوقع ما قالته، ثم ابتسم وقال:

«ارى انك لن تكوني شريكة جدية لنا! ولكن لا احد يتوقع من المرأة ان تفهم هذا الدور».

كان جالساً في الظل يواجهها وقد زادت ظلال اشجار النخيل من دكنة ملامحه وعمق عينيه الداكنتين وابرزت كل خط من خطوط وجهه. واضطربت جيني برؤيته وتمنت لو استطاعت التوقف عن الاصغاء الى كل هذه الامور المتعلقة به.

وقالت بصوت حاولت جعله ثابتاً برغم خفقان قلبها:

«لا علاقة لذلك بكوني امرأة. كل ما في الامر اني لم اعر هذه المصلحة اي اهتمام من قبل ولكن اطمئن يا انطونيو فسوف اتعلم بسرعة».

«اني مطمئن!»

وحاول ارغامها على النظر اليه مدة اطول مما ارادت ثم تابع:

«لكن ارجوك الا تظني انك قادرة على تعلّم كل شيء خلال بضع ساعات قليلة فالعمر كله قد لا يكفي لتعلم هذه الامور».

وهزت جيني رأسها ثم قالت:

«اعرف هذا لكن بوسعي التعلم شيئاً فشيئاً فلدي متسع من الوقت».

وادركت جيني ان انطونيو اعتبر تفاؤلها من باب التهوّر لكنها رفضت الاذعان له.

سألها:

«وهل يعني هذا انك مستعدة للمباشرة فوراً؟».

لم تجب جيني على سؤاله فوراً بل تناولت بعض العسل ثم قالت:

«انت تريد رميي في الماء من غير ان اجيد السباحة».

واحست انه اضطرب لعدم فهمه معنى جملتها فسرّت لاضطرابه ونظرت اليه تبتسم ظافرة وقالت مفسرة:

«اعني هل تريد مني ان اباشر العمل فوراً؟».

كان الطقس حاراً جداً وكانت جيني تفضل الجلوس في ظل اشجار النخيل طوال النهار لكن ضغُبَ عليها الآن التهرب من التحدي الذي جبهها به. واتضح لها انه ظنّ انها تحاول التراجع او تأجيل الزيارة فسألها:

«الا تودين مرافقتي اليوم يا جيني؟».

واومأت ايجاباً وهي تلعق العسل عن شفتيها:

«بالطبع سأرافقك. اني متلهفة لزيارة ما ورثته».

وادركت ولكن بعد فوات الأوان انها اخطأت بلفظها كلمة «ورثت». وثار سخط دونا صوفيا التي اعتبرت كلامها استفزازاً مقصوداً فنظرت الى جيني بعينين ماكرتين متجاهلة محاولة زوجها لتهدئتها وسألتها بلهجة قاسية:

«هل انت تسخرين من ابني لفقدانه ارثه. يا للهول. الا تعرفين الشفقة؟».

واستاءت جيني من اتهام دونا صوفيا لها وحاولت السيطرة على نوبة الغضب التي اجتاحتها، فلم تقصد الهزء من انطونيو كما ظنت والدته لكن دونا صوفيا لن تقتنع بذلك.

ولم تكن جيني راغبة في إثارة جدال مع عمتها وكانت على وشك تلطيف الاجواء ونزع فتيل التوتر اكراماً لعمها على الأقل حين قاطعها

انطونيو اذ خاطب والدته بالاسبانية فيما وضع يده على ذراعها وفوجئت جيني بصرامة ملامحه الصقرية في هذه اللحظة.

واذعنت دونا صوفيا لابنها. وادركت جيني انه نادراً ما كانت دونا صوفيا تتجادل مع ابنها وسبب ذلك انها تعرف انها لا تستطيع قهر ارادته الجبارة على رغم قوة شخصيتها.

وتابعت جيني تناول افطارها محاولة عدم اظهار احساسها بالراحة لتطوّر الامور لكن انطونيو بدا وكأنه مصرّ على بلورة الأمور في ذهنه. فسألها:

«سترافقينني اذاً يا جيني؟».

واومأت جيني ايجاباً وقالت:

«لقد سبق أن قلت لك اني سأرافقك».

وخيّل اليها أنها ترى بريقاً من الرضى في عينيه. وقال لها:

«ستحتاجين الى ثوب يغطي ذراعيك».

وكادت ان تحتج على افراطه في التعامل معها وكأنها طفلة صغيرة لكنه قاطعها رافعاً يده وقال مفسراً:

«ان جو المعمل بارد جداً خصوصاً بعد دفء الشمس في الخارج».

«آه. فهمت».

وحدّق فيها بعينين تتلألآن بهجة ثم قال لها بصوت ناعم:

«ما دمت تريدين تعلّم الاسبانية فعليك ان تتعلّمي ايضاً الا تتكلمي قبل ان تفكري جيداً بما ستقولين. هذا من خصائل المرأة، وان كنت ستصبحين واحدة من آل فرنسيسكو فعليك تذكر هذا».

فوجئت جيني بكلامه فحدقت فيه ثم هزت رأسها وقالت:

«ولكني لست من آل فرنسيسكو ولا اريد تغيير اسمي يا انطونيو».

وابتسم للحظة ثم رمق اباه الذي هزّ رأسه مما زاد في اضطرابها فقطبت حاجبيها الا انه ابتسم لها ثم تمتم بالاسبانية شيئاً لم تفهمه فسألته:

«ما الذي تقوله عني؟!».

وفوجئت به يقهقه وانفرجت اساريره الصقرية الصارمة واثار رنين ضحكته الناعم الخافت خفقات قلبها وجعلها ترتعش. واكثر ما ادهشها هو تلك اللطافة والنعومة اللتان فاضتا من ملامحه. وسطعت عيناه سروراً ثم حدق فيها للحظة قبل ان يتكلم قائلاً:

«قلت لتوي اني معتاد الحصول على ما ارغبه».

ثم ابتسم حين رأى حال الضياع التي انتابت جيني لكنها قالت:

«وما علاقة هذا الأمر بانتمائي الى آل فرنسيسكو؟».

وشعرت بقلق عميق حين رأت علامات الاستياء والغضب على وجه دونا صوفيا:

ظل انطونيو يبتسم غير آبه لاستياء والدته الواضح وهز راسه ببطء ثم قال بصوت ناعم:

«سوف تفهمين يا ابنة عمي الصغيرة. سوف تفهمين».

كان لجو المصنع البارد والشبيه بالكهف وقع عظيم في نفس جيني فراحت تنظر حولها دهشة. كانت البراميل الخشبية مصطفة على الارض الرملية في غرف وامنة طليت جدرانها بالابيض وفي ممرات كممرات الكاتدرائيات وكأنها دهاليز لا نهاية لها.

وسمعت جيني اصواتاً دلّت على وجود اشخاص كثيرين في المعمل بيد انهما لم يصادفا سوى رجل قصير القامة اسمر اللون، مجعّد الوجه تقدم في اتجاههما لحظة وصولهما. وبدا قلقاً او هكذا تراءى لجيني والقى على جيني نظرة خاطفة ومستغربة ثم التفت نحو انطونيو وخاطبه بالاسبانية فظنت جيني انها سمعت لفظة «آنسة». وبدا انطونيو منزعجاً لسماع اخبار هذه الآنسة اذ هز رأسه بصرامة ثم رمق جيني قبل ان يجيب بصوت لين ومتشدد. ثم التفت نحو جيني ورفع حاجبه وابتسم ثم قال:

«آسف لأنك لم تفهمي ما دار بيننا. واعتذر لاستعمالي الاسبانية

لكن العجوز بيريز لا يتكلم الانكليزية».

واجابته جيني بصوت ناعم:

«أظنك مسروراً جداً لكوني لم افهم».

ولم تستطع مقاومة الابتسام حين رأت علامات الاستهجان على وجهه.

وسألها بصوت بارد:

«هل تعتقدين فعلاً ذلك؟».

وامسك بذراعها.

نظر العجوز الى انطونيو ثم تناول كأساً وسكب فيه بعض العصير وقدمه الى جيني. شربت جيني وادركت انها لم تذق في حياتها شراباً اطيب. وعبرت باللغة الانكليزية عن اعجابها وسرّ العجوز برغم عدم فهمه لما قالته بالتحديد، ثم خاطب انطونيو بالاسبانية. وتذكرت جيني رغبة انطونيو لها بضرورة تعلم الاسبانية للتعامل مع المستخدمين. وسألت انطونيو قائلة:

«ما هي المدة التي يستغرقها انتاج العصير».

حاولت بطرحها السؤال هذا اظهار بعض الاهتمام الذكي وقد تذكرت انه شكك في ذكائها حين اعترفت له بقلة مقدرتها على تعلم اللغات.

رفع حاجبيه بفضول ثم ابتسم وسار يرشدها في الممرات وسط البراميل الخشبية وهو يمسك بذراعها. ثم قال:

«تستغرق عملية الانتاج وقتاً طويلاً اذا ما اردنا الحصول على شراب جيّد النوع».

وابتسم فيما رفع حاجبه مرة اخرى معبراً عن احاسيس كثيرة ومتنوعة وقال:

«اخشى الا تكون هناك طريقة لجني الارباح بسرعة».

ثار سخط جيني لكلامه وصاحت به:

«اني لا افتش عن طريقة للكسب السريع بل انا مهتمة فقط بتعلم

كل ما يجب ان اتعلمه».

ولاحظت ان تصرفاته الهادئة وابتساماته كانت تخفي مقداراً كبيراً من الاحتقار لجهلها وشاءت استفزازه لزعزعة ثقته بنفسه فقالت:

«لربما من الأفضل ان اسأل غيرك عن هذه الأمور».

ارتبك لكلامها وسألها:

«عفواً، لم افهم؟».

وشجعها ارتباكه على متابعة استفزازها له فرمقته بمكر ورفعت حاجبيها ثم ابتسمت وقالت:

«تساءلت لتوي هل أنت الشخص المناسب للاجابة عن اسئلتي حول انتاج العصير. لربما افادني عمي رفائيل او احد مستخدمي المصنع اكثر منك. لم يخطر قط في بالي انك قد تجهل بعض الأمور بل افترضت انك ملم بكل التفاصيل».

وصمت انطونيو لبعض الوقت لكنه اطبق قبضة يده على ذراعها وشد باصابعه عليها فآلمتها وقال لها بصوت ثابت وهادىء جعلها ترتعش:

«يا لوقاحتك».

«وقاحتي».

رمقت جيني وجهه الداكن والصارم وادركت انها بالغت في استفزازها له لكثرة تهورها.

وقال لها بسرعة:

«اتعرفين معنى هذه الكلمة؟».

وحاولت جيني ترطيب شفتيها ثم قالت:

«بالطبع اعرف ولكن لم . . . لم أعنِ . . . لم اكن وقحة».

وحاولت تهدئة انطونيو بعد ان نجحت في زعزعة ثقته بنفسه، وانزعجت للقساوة والقوة اللتين رأتها في وجهه.

وسار بصمت يقودها عبر الممرات وسط الجدران البيضاء وبين البراميل التي تراءت لها في ظلمة المعمل الباردة وكأنها وحوش

مفترسة. وتوقف انطونيو في مكان مقفر وهادىء وتصورت جيني انه من السهل على المرء ان يختفي من الوجود في مكان كهذا.

ولم تستطع تحمّل الصمت مدة اطول. فقالت:

«كنت اعني انه لربما لم يكن لديك الوقت الكافي لتعلّم كل شيء».

ورمقها انطونيو كأنه تكهّن بما يساور ذهنها من شكوك وكانت اصابعه لا تزال تقبض بشدة على ذراعها الناعمة. حاولت جيني الافلات من قبضته لكنها لم تفلح وكأنه يدري ضعفها. وزاد من شدة قبضته وبدا وكأنه قاضٍ يسعى وراء الانتقام. واحست بالذعر يعتريها فجأة.

«انطونيو ارجوك هل تستطيع ان . . .».

لكنه قاطعها بصوت صارم وخافت متجاهلاً رجاءها:

«اني اعرف هذه المصلحة معرفتي لذاتي. وقد تعلمتها منذ طفولتي لايماني انها ستصبح ملكاً لي يوماً. تعلمتها كما يتعلم الطفل الابجدية يمكنك انت ايتها الدخيلة. هذه حياتي ولن ادع احداً ولا حتى انت ان ينتزع قسماً منها».

«انطونيو ارجوك».

والتفت الى الخلف ورأت ان المكان خالٍ الا منهما وراح قلبها يخفق بسرعة فيما سار انطونيو بسرعة وهرعت للحاق به.

وسألها بصوت قاسٍ فيما اصابعه راحت نحوها:

«تعتقدين ان بامكانك التعلّم؟ انك لا تعرفين شيئاً».

«ارجوك».

وحاولت مجدداً الافلات منه وقد امتلأت عيناها بالدموع.

«ارجوك اريد العودة».

توقف فجأة ونظر اليها وبرقت عيناه الداكنتان في النور الخافت ثم هزّ رأسه وكأنه يريد تنقيته وارخى قبضة يده عن ذراعها فنظرت اليه بعينين مذعورتين، مفضوحة بدموعها فيما كان قلبها يخفق بسرعة.

«جيني؟».

وقطب حاجبيه كأن دموعها اربكته.

«اني... اني آسفة... لم ارد».

استدار انطونيو لمواجهتها ووضع يده على ذراعيها وضاقت عيناه فضولاً فيما نظر اليها ثم سألها:

«ممّ انت خائفة؟».

لم تجبه جيني بل اخفضت عينيها وحاولت الا تنتبه لقوة وضخامة جسمه.

«جيني!».

رفع ذقنها بيد قوية فواجهت عيناها عنقه الأسمر والنبض الخافق في اسفله. ثم قال لها بصوت ناعم:

«انت تسيئين فهمي مرة جديدة يا ابنة عمي الصغيرة».

وهمست:

«ارجو يا انطونيو ان تعيدني الى المنزل».

لكنها رفعت رأسها وحدقت فيه غاضبة حين سمعت رنين ضحكته الناعم والعميق.

وانزلقت يداه ببطء حول عنقها الناعم وعصرت اصابعه القوية عنقها لبرهة ثم ضحك من جديد لكنه بدا غاضباً.

«هكذا اعتقدت اني جئت بك الى هذا المكان كي...».

وعبّر بحركة من يده عما كان يساورها، فارتعشت وتوسلته بصوت خافت:

«وكيف لي ان اعرف ما تنوي عمله».

وحاولت جاهدة ان تسيطر على ارتجاف ساقيها فيما امسك بذراعيها من جديد وسألها بقوة:

«تعتقدين ان عليّ قتلك كي احصل على ما هو ملكي».

ورمقته جيني بطرف عينيها متوسلة وقالت:

«اني... اني آسفة».

وتمنت لو استطاعت التغلّب على ضعفها وهي لم تعتد البكاء وطلب الرحمة من قبل وها هي الآن تتوسله ان يتركها لكنّ يديه القويتين احكمتا قبضتهما عليها لمنعها من الفرار.

وسألها مجدداً بصوت هادىء وطبيعي:

«هل تظنين فعلاً انني قد اقدم على عمل كهذا؟».

ونظرت الى وجهه الصقري القاسي واعترفت هامسة:

«لا ادري».

«يا للهول. يا لك من حمقاء».

وفوجئت جيني بذراعيه تلفانها وبجسمه يلتصق بها فافلتت منه بسرعة وهرعت لاهثة في الممرّ واذا بها تصطدم بالعجوز بيريز الذي ضمها ايضاً بين ذراعيه ولكن بلطف ونظرت الى وجهه ورأت علامات التعجب والفضول عليه وتخطاها بنظره يسأل انطونيو عن تفسير لما يحدث.

وقف انطونيو حيث تركته وبدا عليه السخط الشديد. وسألها العجوز:

«ما بك يا آنستي؟».

التفتت الى الخلف ثم رطبت شفتيها وسألت العجوز بلهفة:

«ارشدني الى المخرج. ارجوك».

ورفع العجوز كتفيه حائراً والقى بنظرة الى انطونيو ثم قال لها معتذرا:

«لا افهم الانكليزية يا آنستي. اني آسف».

فكررت جيني سؤالها بيأس:

«المخرج؟ اين المخرج؟».

وادركت ان الأوان كان قد فات حين رأت انطونيو يتجه نحوها وغار قلبها ذعراً فيما ارتاح العجوز لقدوم مستخدمه.

كان انطونيو يربكها في الظروف العادية فكيف وقد حاول الآن معانقتها وشعرت بضعف غريب وبرغبة جامحة في الفرار بسرعة.

وشرع العجوز قائلاً:
«دون انطونيو».
لكن انطونيو اوما له أن أصمتْ ثم نظر الى جيني وقال لها بصوت رقيق:
«لقد تصرّفت برعونة يا ابنة عمي الصغيرة». وامسك بذراعها مجدداً ثم تابع: «لماذا حاولت الهرب؟».
وهمست بسرعة:
«انت مدرك تماماً السبب».
واثار التعبير الذي اعترى وجه العجوز سخطها وكأنما اتضحت له فجأة حقيقة ما يحصل،
وسألها انطونيو بهدوء:
«هل حاولت الفرار لانني عانقتك؟ لماذا يا جيني؟ هل تلوذين بالفرار كلما عانقك رجل؟».
وصرخت جيني باكية:
«اتركني وشأني».
وابتعدت عنه متجهة نحو نهاية المشى من غير ان تنوي الى اين يؤدي، وما لبث ان لحق بها وامسك ذراعها بيده من جديد وراحت اصابعه الرشيقة تداعب بشرتها الناعمة بلطف لكنها انتزعت ذراعها وابتعدت عنه بقدر ما سمح لها ضيق الممر. وابتسم ثم سألها برقة:
«هل افهم منك ان رجلاً من قبل لم يعانقك؟ لا استطيع تصديق ذلك يا جيني».
«كان الأمر مختلفاً من قبل».
ورفعت كتفيها غير راغبة في متابعة الكلام. كل ما ارادت هو الابتعاد عنه والخروج من جو المعمل البارد والعودة الى دفء الشمس.
وكرر سؤاله بصوت لطيف لكن باصرار:

«وكيف ذلك؟».
وشعرت من جديد بضعفها، وبلعت ريقها بصعوبة وحاولت السيطرة على خفقات قلبها المتسارعة والمتجهة لملامسته ذراعها ثم قالت بصوت خافت:
«من الخطأ ان تعانقني فانت ابن عمي».
سمعت رنين ضحكته القاسي وتعرت. ثم افلتت ذراعها من قبضته وسارت في المشى بعيدة عنه. عادت الى ذاكرتها تلك النظرات التي تبادلها انطونيو مع العجوز لدى وصولها
واتضح لها ان ثمة امرأة اتت لمقابلة انطونيو عالمة بوجوده في المعمل ولم يسر انطونيو لقدومها بل انزعج لورود اسمها امام جيني على رغم عدم فهمها الاسبانية. وتساءلت حول هوية المرأة هذه. وسألها من جديد:
«هل تعتقدين انه من الخطأ ان يتعانق اولاد العم؟ لماذا يا عزيزتي؟».
«انها امور ما فيه الكفاية».
«اهاه».
ارفق ضحكته اللاتينية هذه بحركة واسعة بيده وكأنه يبعد شيئاً لم يحبه. وتذكرت جيني ان من عادة انطونيو ان يتجاهل الامور التي تزعجه او تحول دون تحقيقه رغباته وكأنها غير موجودة.
وتراءى لها المدخل على مسافة قصيرة الى الامام فحثت خطاها في اتجاهه. كانت تشعر بالراحة لمجرد دنو لحظة خروجها الى الشمس، وتعجبت لراحتها هذه على رغم اضطرارها الى العودة برفقة انطونيو في السيارة حيث لن يوجد من ينجدها اذا ما احتاجت الى احد.
واعترفت في قرارة ذاتها انها كانت تبني كثيراً من الاستنتاجات ولربما ظلمت بعضها انطونيو كما ادعى لكنها لم تستطع نسيان تلك النظرات الخاطفة التي تبادلها مع العجوز لدى وصولها.

اقتصرت معرفتها للاسبانية على بعض الكلمات الاساسية لكنها كانت متأكدة من انه تمنى لو لم تسمع بعض ما ورد في حديثها وايقنت ان لفظة «آلسة» تتعلق بامرأة اراد انطونيو اخفاءها عنها. اربكتها حال انطونيو هذه اكثر من حالات الغضب او الازدراء لها التي باتت تعرفها. وعلى رغم محاولته معانقتها، شعرت بتزايد تأثيره عليها يوماً بعد يوم.

ايقنت انه لا ينوي ابداءها، رغم استيائه منها بسبب حرمانها له من امتلاك المصنع برمته وقد اظهر لها مقدار تعلقه به.

توجها معاً نحو السيارة المتوقفة واحتفظ بيده على ذراعها من دون ان يداعبها بل كان يقبضها بغضب وكأنه اغتاظ لملاحظتها حول صلة القرابة بينهما. وقال لها:

«جيني».

حاولت الافلات منه وراح قلبها يخفق بسرعة فائقة. ونظرت الى عينيه الداكنتين وحاولت فهم التعبير الذي رأته فيهما لكنه تابع يقول:

«هل تظنين ان صلة القرابة بيننا تمنعنا من المعانقة؟ هذا سخف يا جيني».

«لست من رأيك».

لم تنظر اليه لكنه امسك بذقنها ورفع وجهها نحوه كما فعل في المصنع من قبل. وعلق نظرها مجدداً على عنقه الأسمر والنابض وانكمشت يداها على صدره ثم ابتعدت عنه:

وقال بصوت هادىء ومقنع:

«صحيح ان ابوينا من جد واحد ولكن...».

وحاولت جيني فهم سبب اصراره لكن من دون جدوى، وبدا مصراً على ان تعتنق وجهة نظره فقالت:

«هذا يجعلنا ابناء عم».

لكنه اصرّ قائلاً:

«نعم. لكننا لسنا ابناء عم. فوالدي شقيق والدك من ام ثانية».

«اعرف ذلك ولكن...».

لكنه قاطعها بقوة:

«مما يعني ان الدم الذي يجري في عروقنا ليس مشتركاً إلاّ بنسبة قليلة».

«لا انكر ذلك ولكن...».

«اذن».

رفعت جيني عينيها اخيراً ونظرت اليه بفضول وقد شعرت انه حمل كلمته الاخيرة اكثر من معنى فسألته:

«انطونيو؟ وما اهمية هذا الأمر؟».

صمت قليلاً وغارت عيناه الداكنتان ثم شدد قبضته على ذقنها فجأة وافترّ ثغره عن ابتسامة اثارت خفقان قلبها ثم قال بصوت هادىء:

«لانني انوي الزواج منك يا ابنة عمي الصغيرة».

تمكنت جيني بعد جهد من حمل عمها على التكلم معها على حدة فخرجا الى الحديقة في مساء اليوم ذاته وكان مهتماً لمعرفة ما يجول في ذهنها فسألها بأسلوبه اللطيف والناعم.

«هل من أمر يزعجك ايتها الطفلة؟ اربما عمتك...».

وسارعت جيني الى طمأنته قائلة:

«كلا. ليست عمتي صوفيا انما انطونيو يا عمي رفائيل».

اكفهر وجه عمها عند سماعه كلامها وكأنه يرفض التكلم عن ابنه وواجهت جيني صعوبة في اكمال كلامها فعضت على شفتها مضطربة وسمعته يقول لها:

«كنت آمل ان تتوطد الصداقة بينكما».

ثم بسط ذراعيه معبراً عن اسفه.

نظرت اليه جيني وادركت فجأة انه على علم بمخطط انطونيو

للزواج منها ولا بد ان تكون دونا صوفيا على علم بها ايضاً مما يفسر كرهها لها. وعضت جيني شفتيها مرتبكة لكنها ادركت ان عليها متابعة تقصي الحقائق على رغم اضطرابها وقالت بصوت حاولت اعطاءه نبرة البرودة:

«اني على اتمّ الاستعداد لأن أكون صديقة لانطونيو. لكنه يريد مني اكثر من ذلك. اليس كذلك يا عمي رفائيل؟»

ورمقت عينيه الحزينتين فتذكرت عيني جدها واحست بالشفقة حياله من دون ان تعرف السبب. ومشى بجانبها عبر الحدائق المعطرة وذراعه حول خصرها ثم قال لها بعد صمت طويل وبصوت هادىء ورقيق:

«نصحت انطونيو بالانتظار مدة اطول حتى يتسنى لك الاعتياد على اساليبنا وعلى حياتنا وبلادنا. ولكن...»

وبسط ذراعيه مستسلماً:

«لكن ابني رجل لا يعرف الصبر وينال دائماً ما يريده».

وصاحت به جيني:

«لكن لن ينال مني».

لم تكن مقتنعة تماماً بما قالته اذ كانت متأكدة من ان انطونيو قادر على اقناع الطيور بمغادرة الاشجار اذا اراد. وكانت تخشى قدرته على الاقناع بقدر ما تخشى قدرته على تحريك مشاعرها.

والتفت رفائيل بسرعة لسماعه رفضها ورمقها بعينين ضيقتين ثم سألها:

«وهل صارحت انطونيو بهذا؟»

واومأت جيني ايجاباً ثم قالت:

«نعم. بالطبع».

وقطبت جيني حاجبيها حين تذكرت رد فعل انطونيو. وتوقعت وقتها ان يجادلها او ان يصرّ عليها كعادته لكنه اكتفى بهز رأسه وبالابتسام ثم فتح لها باب السيارة.

وهز رفائيل برأسه فقطبت حاجبيها من جديد وقال لها بصوت متأسف:

«من المؤسف انك تصرفت بهذا التهوّر. كانت الحكمة تقضي بان تنتظري بعض الوقت قبل الاجابة».

وذهلت جيني حين سمعت قوله وهزت رأسها غير مصدقة وقالت:

«ولكن هل تعني انك موافق على خططه. اي انك تريدني ان اتزوج انطونيو».

ورفع رفائيل مجدداً كتفيه ثم بسط يديه وقال:

«وما الضرر من ذلك ايتها الطفلة؟»

تعلقت للموقف المتباين الذي تبناه وكانت تحسبه حليفاً لها وقالت:

«ولكني لا أكاد أعرفه».

ثم تذكرت حادثة العجوز في المصنع فتابعت:

«الا توجد امرأة اخرى في حياة انطونيو؟»

رمقها وقد اضطرب ثم قال:

«كلا يا جيني لا نساء في حياته».

كانت تتمنى تصديقه لكنها كانت مقتنعة بتفسيرها للحوار الذي دار في المصنع فرمقته بفضول وقالت وهي تحاول انتقاء الكلمات المناسبة:

«ظننت... قد اكون مخطئة».

ورنا اليها رفائيل بعينين حزينتين ثم قال بصوت رقيق:

«انت لا تعلمين ايتها الطفلة ان جدك اراد لك ان تتزوجي انطونيو وهو الأمر الذي حدا به الى جعلك وريثة له وهذا سبب قدومك الينا».

حدقت جيني في عمها وسطعت عيناها الخضراوان في النور الخافت وقد اتسعتا لدهشتها وتضاربت الافكار في ذهنها لما سمعت.

لقد بدا رفائيل واثقاً من كلامه لكن صَعُبَ عليها التصديق بأن جدها يتصرّف بهذا الشكل وهي التي اعتقدت انه احبها. وقالت بسرعة:

«لا. لا استطيع ان اصدق ان جدي قد يعاملني بهذه الطريقة إذا كان يحبني».

«وكان يحب انطونيو ايضاً».

ووضع رفائيل يده بلطف على ذراعها وتابع:

«كان دائم التحسّر على التفرقة التي سادت عائلتنا وهو الذي ارادها متحدة بشقيها واعتبر ان زواجك بانطونيو هو السبيل الوحيد لاعادة لحمة العائلة. يا جيني».

وهمست قائلة:

«لكن هذه الحسابات مريعة».

«لا. لا أيتها الطفلة».

دل احتجاجه هذا على عدم معارضته مشروع والده وعلى المرونة التي كان يتعامل بها مع الموضوع. وسمعته يقول:

«يتعدى زواجكما كونه مناسباً فهو زواج لحمة ايضاً اذ ستنمو العائلة كما تمنى والدي وتستمر مؤسسة فرنسيسكو واولاده مزدهرة».

وصاحت جيني بيأس:

«كلا لا استطيع الزواج في ظروف كهذه خصوصاً من انطونيو».

وعبرت عينا رفائيل عن ارتباك كبير وكأنه لا يستطيع فهم امرىء لا يحب انطونيو وسألها:

«الا تحبين انطونيو؟».

تفادت جيني النظر اليه لكن قلبها راح يخفق بسرعة جنونية حين تذكرت معانقة انطونيو لها وملامحه القاسية حين نعتها بالرعونة وادركت انه لن يتردد ابداً في الزواج منها من اجل الحصول على

حصتها. وهي تفضل الموت على التخلي عن حصتها بهذه الطريقة. واجابت عمها بصوت هادىء:

«اني اكن كل المودة لانطونيو، لكني لن اتزوج منه مهما كانت الظروف. آسفة يا عمي رفائيل. لكن تربيتي تمنعني من القبول بامور كهذه. لا استطيع الزواج لتلبية رغبة جدي او للحمة العائلة. لم نعد في القرون الوسطى يا عمي رفائيل ولا يتزوج الناس لدوافع عائلية في ايامنا».

وصمت لوهلة لكنه تابع السير بجانبها. كانت جيني لا تزال تستصعب التصديق ان جدها الذي أحبته حباً جماً وظنت انها تعرفه معرفة وثيقة قد خطط مستقبلها بهذه الطريقة. وسألها رفائيل بصوت ناعم:

«تنوين الزواج بدافع الحب وحده، ايتها الطفلة».

ورمقته جيني وادركت عمداً مقدار استهجانه رفضها الزواج من ابنه. وقالت موافقة:

«متى قررت الزواج فلن اتزوج الا بدافع الحب. هذا هو السبيل الصحيح الوحيد يا عمي رفائيل».

«هذا معقول».

وطأطأ رأسه لبرهة وجيزة ثم نظر اليها وابتسم فيما سألها بصوت ناعم:

«ولم لا يكون الحب دافعك ايتها الصغيرة؟ أنت لا تنوين مغادرتنا اليس كذلك؟».

هزت جيني رأسها مترددة. ولم تعد واثقة ابداً من صواب بقائها في المنزل بعد ان سارت الامور على هذا المنحى وقالت:

«لا. لن أغادركم. او بالأحرى ليس في القريب العاجل».

وابتسم فتوهجت اسنانه في الظلام ثم قال بصوت

هادىء:
«سيكون الوقت كافياً ان شاءالله».

٣ - الحوار القاسي

وجدت جيني صعوبة في التصرف وكأن شيئاً لم يحدث وادركت انها باتت تحاول تفادي لقاء انطونيو على رغم عيشهما في منزل واحد وعلى رغم دروس الاسبانية. لم يبد انطونيو منزعجاً ابداً لكونه افشى لها مخططاته للزواج والدوافع الكامنة وراء قراره لكنه كان نادراً ما يخفق في الحصول على ما يريد.

كان يعتبرها جزءاً من المؤسسة التي يمتلكها عن حق وهو مستعد لأي شيء في سبيل تحقيق رغباته. وبرغم اصرارها على رفض مقترحاته كانت تحس بفضول احياناً لمعرفة موقفه منها اذا ما استمرت في رفضها. وشعرت بالمغامرة لبقائها في المنزل في حضور انطونيو ورفضها له.

لم تفهم جيداً الدوافع التي حدت بها الى قبول دروس الاسبانية لكنها ادركت ان لعمها رفاييل دوراً كبيراً في قرارها لكونه متلهفاً لأن تتكلم لغتهم. ولم تجد سبباً مقنعاً للاعتراض فقد لعب طابع التحدي الذي اضفاه انطونيو بتشكيكه في مقدرتها الذهنية على تكلم الاسبانية دوراً مهماً ايضاً اذ سنحت الفرصة امامها كي تبرهن انه مخطىء في الاستخفاف بها.

تفاجئت لكونها تكيفت تماماً بعد مرور اربعة اسابيع على اقامتها في المنزل الذي احتفظ ببعض بصمات جدها اضافة الى طابعه الاسباني الأكيد وكانت تحب جو غرفتها وتستمتع بالنوم في سريرها الحديدي

الكبير وسط اعمدته الاربعة وقد احاطت بها الرفاهية من كل جانب.

احبت البساط واغطية السرير المعرقة والنوافذ المقنطرة والعالية التي تطل من خلال التلال الخضراء وازهار الورد والماتسوليا التي تدلت على حافة النوافذ مالئة الغرفة الواناً وعطراً. وادركت جيني انها لم تسكن في حياتها غرفة اجمل وشعرت انها بمكوثها في هذا المنزل تلبي مشيئة جدها وكانت عازمة على الاستمرار ولو رفضت الانصياع لبقية مخططاته لها.

هبطت السلم ما بعد ظهر ذات يوم تتأبط كتاباً واحست بشعور الانتفاضة ذاته الذي يتكرر لاقتراب موعد الدرس مع استاذها القليل الصبر. كانت بطيئة في تعلم اللغات وغالباً ما كان صبر انطونيو ينفذ لظنه انها تتعمد ارتكاب الاخطاء.

التقت به في الغرفة المجاورة للبهو ورمق ساعة يده حين فتحت الباب. وقد حولت المكان الى غرفة دراسة فيها مكتب ضخم قرب النافذة وآخر اصغر منه عند الحائط المقابل للتخفيف من سبل التلهي.

كان انطونيو مختلفاً عن جميع الاساتذة الذين عرفتهم. وكانت تنزعج لكثرة انتباهها الى قميصه الأبيض الذي يعطيه طابعاً من القوة والشراسة وعنقه الأسمر القوي والنابض وملامحه الصقرية وقد زادت دكنتها في جو الغرفة الباردة والظليل.

جلس على حافة المكتب الكبير وساقه تتأرجح ونظر اليها ثم قال:

«لقد تأخرت».

قطبت جيني حاجبيها لملاحظته التي طالما كررها واجابته بصرامة:

«انطونيو لست تلميذة في المدرسة ولست مضطرة الى الحضور في ساعة معينة».

واجابها بهدوء:

«اعتقد ان حسن التهذيب يقضي بأن تتقيدي بالمواعيد ولربما لست تلميذة مدرسة يا ابنة عمي الصغيرة لكني لست ايضاً مدير

مدرسة واذا ما استمريت تتعمدين الحضور متأخرة فسأضطر الى اتخاذ اجراءات لتقويمك تفوق صرامتها كتابة السطور».

واحمر وجه جيني غضباً ورمت الكتاب على المكتب وسطعت عيناها حين نظرت اليه وقد وقف على بعد قدم او قدمين منها وقالت:

«لا ابالي ان تعلمت او لم اتعلم».

وتمتم:

«تباً لك. يا لك من طفلة عنيدة».

وصاحت به:

«لست طفلة ولست عنيدة ابداً واذا ما استمريت بضيق خلقك فاني راحلة».

«انا ضيق الخلق».

كان من الواضح انه لم يفهم التعبير الانكليزي الذي استعملته فابتسمت لارتباكه ورمقته بطرف عينها ثم قالت:

«انت في حاجة الى ان اعطيك بعض الدروس في الانكليزية».

ورأت الغضب في عينيه. فاجابها بصوت بارد:

«من الأفضل الا تكوني وقحة؟»

ثم تناول الكتاب الذي رمته على المكتب وتابع:

«انني اجيد الانكليزية واظن ان اللفظة التي استعملتها غير صحيحة نحوياً».

وترجمت له جيني التعبير.

«ضيق الخلق يعني سيء الطباع لكنه اكثر ملاءمة في الحال هذه».

وتنهد انطونيو وكأنه يبحث عن الصبر الكافي ثم قال:

«يا الهي هناك اوقات استطيع ان...».

وقبضت يداه السمراوان على الكتاب وكأنها تحاولان سحقه ونظر اليها بغضب ثم سمعته يتنهد واشار الى كرسيها وقال:

«اجلسي. لن نهدر مزيداً من الوقت في اشياء تافهة».

ولما ادركت ان صبره على وشك النفاد جلست وراء المكتب الصغير ملعنة برغم احساسها بالظلم لمعاملته لها وكأنها تلميذة مدرسة. وكانت تتوق للتعبير له عن رأيها فيه فعزت نفسها باليوم الذي ستتخلى فيه الاصابة.

فتح الكتاب عند صفحة معينة ووضعه على الطاولة امامها واشار باصبعه الى مقطع عليها محاولة قراءته. كان يعتمد هذا الاسلوب لتدريسها اللفظ وهي تكره الفرصة لكثرة الاخطاء التي ترتكبها.

وقال لها باختصار:

«حاولي قراءة هذا المقطع».

ثم عاد الى الجلوس على حافة المكتب وساقه تتأرجح من جديد، ثم تكتف وراح يراقبها بعينيه السوداوين.

شرعت بالقراءة وبارتكاب الاخطاء في لفظ الكثير من الكلمات التي غالباً ما ظنت انه يستحيل عليها لفظها. وكانت تحاول تذكر الفروق بين الانكليزية والاسبانية وتعرفت الى اسم واحد وهو مدينة قادش فسارعت الى لفظه لكن انطونيو استوقفها قائلاً بغضب:

«لقد اخطأت لفظ كلمة قادش كعادتك يا عزيزتي، لماذا؟».

واجابت:

«لست ادري. ربما لانك جالس على المكتب هكذا تراقبني وكأنك صقر ينتظر لحظة ارتكابي الخطأ للانقضاض علي. انك تثير اعصابي فلا يعود في وسعي حفظ اي شيء».

«انا ... انقض».

وفاضت ملامح وجهه بالاستهجان وتأكدت لتوها من صحة استعمالها لكلمة «انقضاض» اذ كان يذكرها بتلك الطيور الكبيرة المنقضة.

لكن استعداده للانقضاض لم يكن السبب الوحيد لعصبيتها

وعدم تركيزها بل كانت هناك اسباب اخرى لم تستطع تحديدها حتى الآن لكنها كانت تربكها.

واصرت على موقفها فقالت:

«انت حقاً تنتظر لحظة الانقضاض علي. وتعلم هذا الامر يا انطونيو».

«وانا اثير عصبيتك؟».

«اجل».

استاءت لاعترافها هذا لادراكها انه اقل غضباً مما توقعت ولاحظت ان عينيه السوداوين تراقبانها عن كثب. وسألها بصوت هادئ:

«وما السبب؟».

ثم ابتسم للحظة.

اجابته بصوت خافت متحاشية النظر اليه:

«لقد سبق ان اخبرتك عن السبب. لانك تتوقع مني ان اخطئ. فلو ذهبت وجلست في مكان اخر لاستطعت التركيز على نحو افضل».

«آه ... ».

عبرت صيحته هذه عن الكثير وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة غمرت عينيه وخففت من قساوتها المعهودة فراح قلبها يخفق بسرعة

«لا احب ان يراقبني احد عن كثب في اثناء الدراسة. لا احد يحب هذا ... ».

«لكن من الطبيعي ان يراقب الاستاذ تلميذته».

وانحنى في اتجاهها فجأة وحاول التقاط انظارها ثم قال:

«انت تحاولين التذرع يا حبي؟ اليس كذلك».

ارتجفت يداها وعضت على شفتيها قلقة ثم قالت:

«اني لا اتذرع. ارجوك يا انطونيو ان تذهب وتجلس وراء المكتب

الثاني».

«اني متلهف لمعرفة سبب الغائي لك عن دروسك يا جيني».

ثم داعب ذراعها بلطف فارتعشت وسحبتها وان على مضض وسألها برقة:

«كيف ذلك؟».

«انطونيو ارجوك».

كانت تريده ان يبتعد عنها ويجلس وراء المكتب المقابل او ان يخرج من الغرفة، اذ ادركت فجأة قوة حضوره في ذهنها وهي لم تعهد الشعور هذا قبلاً ورأت في عينيه انه يعي تماماً تأثيره عليها، وقد اخطأت في الكشف له عن مدى تأثيره لكونه قادراً على استغلال قدرته هذه لتحقيق اغراضه.

وقال بصوت ناعم:

«يا عزيزتي...»

وانحنى اكثر نحوها ثم امسك ذقنها ورفعها نحوه. تسارعت خفقات قلبها بقوة وارتخت ساقاها لكنها ابعدت يده اللطيفة عن ذقنها بقوة وعضت على شفتيها متخفية، وقررت الا تسمح لنفسها بالتأثر بمحاولاته الوصولية للتقرب منها.

وقالت له بصوت خافت ومضطرب:

«لا جدوى يا انطونيو. لن اغير رأيي مهما حاولت اقناعي».

وارتفع حاجباه بتساؤل مع انها ايقنت انه فهم تماماً قصدها لكنه قال بصوت هادئ:

«لم افهم قصدك. هلا فسرت لي».

«لا داعي للتفسير. فانت تعلم اني اعرف انك تحاول بكل الطرق ارغامي على الزواج بك لكني لن ارضى. لن اوافق على الزواج بك كي تحصل على حصتي في المصنع. لن استطيع ابداً».

وسألها بقساوة وقد فاض الغضب من عينيه:

«يبدو لي انك تنظرين الى زواجك بي وكأنه امر مريب».

ثم نظر اليها بقساوة وقال غاضباً:

«الا تدركين ان هناك الكثيرات من النساء تتمنين لو كن مكانك؟».

«اذن تزوج احداهن».

ونظرت اليه لاهثة مضطربة وبرقت عيناها وكأنها حجران كريمان ثم انكمشت يداها على الكتاب الذي يفترض بها ان تقرأه.

قاوم نظراتها لبعض الوقت وفاق غضبه غضبها ثم نهض فجأة وجارته في النهوض لا شعورياً ووقفت وراء المكتب مرتابة للعاصفة التي اثارتها فيه.

ثم استدار فجأة ووضع يديه في جيوبه وشمخ رأسه بتعجرف ثم قال بصوت قاس ومؤثر:

«لانني لا اريد الزواج باحداهن. اريدك انت زوجة لي. وسابلغ هدفي. اعدك بذلك يا حبيبتي بل اقسم لك اني سافعل هذا».

ألقت جيني بنظرة خاطفة عليه فيما راح قلبها يخفق بسرعة جنونية لتصريحه هذا لكنها سرعان ما تذكرت نواياه الجشعة ووصوليته فقالت بصوت مضطرب:

«هل لاني املك حصة في مؤسسة فرنسيسكو وابنه».

«آه، يا لشبهاتك».

ونظرت اليه متحدية حين التفت فضحكت للحظة حين رأت عينيه الضيقتين وفمه الملتوي، ثم قذفته بالكتاب وسارت باتجاه الباب:

«لا تتعب نفسك في تعليمي الاسبانية يا انطونيو فهو لن يجديك نفعاً».

«جيني».

لم تلتفت بل وقفت امام الباب الموصد وشدت يدها على راحة كفها حين احست بوقع خطاه تقترب منها. وقف وراءها على مقربة

وكانت تشعر بغضبه الجامح ومحاولاته السيطرة على اعصابه. وفوجئت بصوته الهادئ، يقول لها:

«عودي ادراجك واكملي الدرس».

استدارت على نفسها ونظرت اليه مقطبة الحاجبين. ثم هزت راسها ببطء وثبات وقالت:

«لا، لا ارى جدوى في متابعتي الدروس».

لكنه اصر:

«ان اردت البقاء شريكة في المؤسسة فعليك ان تتعلمي».

وترددت فترة ثم التفتت لتواجهه وعبرت عيناها عن ارتباكها.

«واذا قررت الرحيل».

وخيل اليها للحظة انها رأت شبح ابتسامة على ثغره الواسع وفي عينيه الداكنتين وقال لها بصوت رقيق:

«ساعتبرك عندئذ حمقاء كما اعتقدت ان اناديك والحقيقة انني لا اعني ما اقول يا جيني».

وارتخت قبضة اصابعه بعض الشيء، وعاودت خفقات قلبها الى التسارع ثم تنهدت وقالت محاولة الظهور بمظهر غير المستسلمة:

«سوف ابقى ولكن. . . انتظر حتى اتقن الاسبانية فساعبر لك عندئذ عن رأيي فيك واظن انك لن تسر لسماعه».

ومد يده نحوها يرشدها الى المكتب ويناولها الكتاب وقال:

«معقول. اما الآن فعليك تعلم الاسبانية يا ابنة عمي الصغيرة وقد تفكرين لاحقاً في انتقادي».

وشدد قبضة اصابعه للحظة على يدها وابتسم من جديد ثم قال بصوت ناعم:

«سوف نرى. سوف نرى».

اقترح عمها عليها ان ترافق انطونيو لركوب الخيل لكنها رفضت ضاحكة واكدت له انها لا تحب ركوب الخيل. ولم يصر انطونيو عليها لكنه كان قد عرض عليها سابقاً مرافقته لرؤية الجياد.

لم تحب الخيل في حياتها وكانت تدرك في قرارة ذاتها انها تخشاها ولا تكرهها. لكنها قررت الا تبوح بدوافعها هذه لانطونيو واكتفت بالتصريح انها غير مهتمة بالخيل. وقد اعتاد انطونيو ان يركب الخيل تقريباً كل يوم في الصباح الباكر ويرتدي سروال الفروسية القصير وينتعل جزمة ساطعة وقميصاً ابيض يبرز سمرة بشرته. وكانت جيني تعجب دائماً بمنظره في بزة الركوب التي تزيد من رجوليته وعدائيته وتفسر بنظرها افتتان كل النساء اللواتي تكلم عنهن.

ولا شك ان المرأة التي اتت لزيارة المصنع كانت احداهن وكانت جيني تتساءل احياناً ان كان يقابل تلك الآنسة التي اصر عمها على انها غير موجودة، وكانت جيني متأكدة ان انطونيو يشكل نصيباً جذاباً، ليس فقط لكونه شريكاً في ملكية مؤسسة مزدهرة بل لجاذبيته وسحره.

ولم يات على ذكر اسم اي امرأة خلال الاسابيع الستة او السبعة التي امضتها جيني في المنزل، الا اسم غازاريس الذي سمعت جيني عمتها صوفيا تلفظه ذات مرة وانتبهت للنظرة الخاطفة التي خصها بها زوجها عمداً، ورأتها تذعن له.

وحب بها النسيم العليل حين خرجت من غرفتها الى الشرفة وتأملت الحديقة تحتها. وعبير الورود وازهار الماغنوليا يفوح ويطغى على العطور الاخرى وتمايلت اشجار البرتقال بفعل النسيم المنعش فيما القت اشجار النخيل بظلالها على زوايا الباحة حيث اعتادوا تناول الافطار الذي كان قد اقترب موعده.

وتمطت جيني ثم تثاءبت بكسل وبسطت ذراعيها وتدلى شعرها الاحمر المبعثر. واذا بها تسمع وقع خطى في الباحة وقد دلت سرعتها وايقاعها على ان صاحبها هو انطونيو فخفضت يديها لينبني لها مراقبته. وظهر لها بقامته الطويلة والنحيلة وقد انتعل جزمة وسار عبر الحديقة الرائعة بخطى واثقة كعادته فابتسمت.

رأت رأسه الاسود المتجعد والسوط القصير في يده وحسبت

قد لا يكون بمفرده».

ثم رمقت عمتها صوفيا لاعلامها انها هي مصدر معلوماتها ثم ابتسمت بمكر:

«من الأفضل ان تعلمي ان ما علمني انطونيو من الاسبانية، خولني فهم كلمة... (خطيبة)».

ورمق رفائيل زوجته معاتباً ثم صاح:

«آهاه ولكنك انت الخطيبة يا جيني».

لكن جيني هزت رأسها ببطء وقالت:

«قد اكون خطيبة انطونيو في نظرك انت يا عمي لكني متأكدة اني لست خطيبته في نظر دونا صوفيا».

ورمق زوجته من جديد ثم رأته جيني يستسلم للأمر الواقع برغم محاولته اقناعها مرة اخيرة اذ قال بصوت هادىء لكن بعينين قلقتين:

«انت على خطأ يا جيني».

ولاحظت جيني ابتسامة الرضى على ثغر دونا صوفيا فيما راحت تنظر الى زوجها وقد سرت لكشف النقاب عن الأمور وانتظرت من زوجها ان يفسر المسألة كيفما استطاع. وكان مرتبكاً وتشابكت يداه وبحث جاهداً عن الكلمات المناسبة. وبدا تعباً جداً حتى ان جيني احست بالشفقة عليه وقال اخيراً بصوت ناعم:

«من الصعب القول، يا جيني».

لكن دونا صوفيا كانت اقل تحفظاً منه فقالت لجيني وعيناها الداكنتان تومضان:

«لا يصعب قول الحقيقة. يركب ابني الخيل مع الآنسة ماريا غازاريس».

وكان الرضى يفيض من ملامحها وتابعت:

«وكان من المقرر ان يتزوجها انطونيو لولا وقوفك عارضاً في وجهه انت والحقوق التي سلبتها منه».

«آهاه... فهمت الآن».

تأوهت جيني. واتضحت الأمور لها وان لم يخف تعقيدها.

«بات ابني الآن مرغماً على تزوجك من اجل استعادة ما هو ملكه شرعاً».

وقاطعتها جيني بحماسة:

«لن يحصل على حصتي ابداً. لقد رفضت الزواج منه».

صدمت جيني لاطلاعها على طبيعة العلاقة التي تربط انطونيو بالآنسة غازاريس على رغم انها توقعت شيئاً مماثلاً. لكنها لم تتصور ان الأمر جدي الى حد الخطبة كما ادعت دونا صوفيا وكان واضحاً انها تفضل ان يتزوج ابنها الفتاة الاسبانية ولن يمر ابداً ببال دونا صوفيا لومه على رغبته في الزواج من امرأة من اجل استرجاع حصته ليس الا.

وسألتها دون صوفيا وكان سؤالها في غاية التعقل:

«وكيف له ان يستعيد ما هو ملكه شرعاً ان لم يتزوجك، لا اظنك مستعدة ان تتنازلي له عن حصتك؟».

«لا انوي التخلي عما تركه لي جدي. ولا انوي الزواج به يا عمتي صوفيا».

اجتاحت دونا صوفيا موجة من الغضب الشديد حتى ظنت جيني انها ستقدم على ضربها وارتبكت ان تهجم عليها لكنها قبضت على يديها بكل قواها ارتجفتا ثم قالت بصوت بارد:

«سوف يتزوج ابني من ماريا غازاريس ويضع حداً لهذه المهزلة برغم حرمانك له من حقه».

وخاطبها رفائيل بصوت خفيض:

«لا تصدقي ايتها الطفلة جيني. ارجوك ان تفهميني».

ثم ضغط على انامله ورمق زوجته بقساوة لم ترها جيني من قبل، ثم قال لزوجته بلهجة قاسية وعينين تحذرانها من مغبة المتابعة في الاستفزاز:

«كفانا يا صوفيا. لم يكن هناك اي وعود او خطبة وانت تعلمين ذلك».

لكنها الحت وقد شوهت الخيبة ملامحها الداكنة وقالت:

«انت مخطىء. كان انطونيو مقدماً على الزواج من ماريا لولا وجود هذه...».

«صوفيا!!».

صرخ بها رفائيل وقد تحول الى رجل مثير للرهبة على غرار ابنه انطونيو لكثرة غضبه ونظرت اليه جيني تكاد لا تصدق ما تراه. لكن سرعان ما تلاشى غضبه وهز رأسه حزيناً ثم التفت نحو جيني وامسك يدها بين يديه يود اقناعها وقال بصوت رقيق:

«لم يثر قط موضوع الزواج بينهما يا جيني. ولم يكن انطونيو راغباً في الزواج من ماريا غازاريس».

وابتسمت جيني ابتسامة حزينة ثم هزت رأسها.

«انا آسفة يا عمي ولكني اميل الى تصديق عمتي صوفيا في هذه الحال. لقد عدل انطونيو عن رأيه حين ورثت الحصة في المصنع».

«كلا. كلا ايتها الطفلة».

ونظرت اليه بثبات وقد تعرفت عيناها على الحقيقة التي كان يجهد في رفضها وقالت بصوت ناعم:

«عمي لقد قلت لتوك ان هذا ما اراده جدي. وانطونيو لا يخفي كونه راغباً في الزواج مني لاسترجاع حصتي في المؤسسة فقط. لا اخادع نفسي حول نوايا انطونيو لكني لا اريد الزواج منه ابداً فإذا اراد ماريا غازاريس او اية امرأة غيرها فلا مانع عندي».

«آه يا جيني انك تصورين الامر وكأنه غاية في...».

«الوصولية. اجل يا عمي وهو ما يردعني عن الموافقة ويروعني حتى بمجرد التفكير فيه».

واجابها بصوت رقيق:

«كل ما يريده انطونيو هو تحقيق رغبات جده».

لكنها هزت برأسها من جديد وقالت:

«ربما. لكن بعض آراء انطونيو تعود الى القرون الوسطى يا عمي رفائيل اما آرائي فلا».

ثم ابتسمت حزينة وحاولت اقناعه مرة اخيرة بصواب رأيها وقالت:

«لو اقتصر الامر على تلبية رغبات جدي لما عارضته بهذه القوة لكن انطونيو لا يعطي وزناً لامنيات جدي بقدر ما هو مصمم على استرجاع حصتي في مؤسسة فرنسيسكو وابنه. وهو لن يحصل عليها ابداً».

٤ - لا للخيل

بدا ان نزهة انطونيو وماريا غازاريس قد عكرت مزاجه وتساءلت جيني حول طبيعة الأحداث التي ساهمت في احداث التبدل هذا. لربما انزعجت «الآنسة» من قرار حبيبها الزواج من امرأة اخرى وكان من الصعب على جيني ان تلومها نظراً الى ظروفها الحالية. وكانت متأكدة من ان انطونيو مغرم لاقناعها بكلام دونا صوفيا وعلى رغم تكذيب عمها. وبعد ان علمت بهوية الفتاة الاسبانية ارادت ان تعرف المزيد عنها. وقد استبعدت ان يتكرر ذكرها بعد المشهد العاطفي الذي جرى حول مائدة الافطار ولن يتجرأ احد بالطبع ان يتطرق الى الموضوع ذاته على مسمع من انطونيو لكن هذا لم يمنعها من الشعور بالفضول الكبير.

كانت دونا صوفيا ترغب في توطيد العلاقات بين ابنها وماريا غازاريس. وبات عليها الآن هي ايضاً الخضوع لرغبات ابنها الجشعة واحست جيني بالمودة حيالها هذه المرة. وفي الصباح التالي هبطت جيني السلم لتناول الافطار والتساؤلات تجول في ذهنها. هل ذهب اليوم ايضاً انطونيو لركوب الخيل برفقة المرأة نفسها ام لا؟ لم تشاهده اليوم في اثناء خروجه لكنها نادراً ما كانت تحظى به اذ كان يخرج قبل الافطار في وقت مبكر جداً ثم يعود بعد نحو ساعتين.

لكنها رأته هذا الصباح جالساً الى الطاولة الصغيرة البيضاء في غائل اذ جار النخيل برفقة عمها ودونا صوفيا. ونهض مبتسماً لما رآها.

وتمتمت تحية اياهم بعد ان رحبوا بها بالاسبانية وساعدها انطونيو على الجلوس ثم عاد الى مقعده.

احست جيني بالارتباك لوجود انطونيو هذا الصباح ولم تكتشف السبب ولم تفوه الا بالقليل. لكنها نظرت اليه مندهشة عندما وضع إناء العسل امامها وابتسم وقد سر لدهشتها ورفع حاجبه بفضول ثم سألها بصوت رقيق:

«تحبين العسل عادة اليس كذلك؟».

اومأت برأسها ايجاباً.

ثم تابع قائلاً:

«ويبدو عليك كأنك في حاجة الى تناول بعض الحلوى اليوم يا جيني».

امتعضت لتلميحه هذا لكنها ابت خوض جدال مع انطونيو ولم يكن النهار قد ابتدأ بعد فتناولت إناء العسل وهزت رأسها شاكرة ثم قالت بصوت بارد:

«يا للباقتك يا انطونيو. شكراً».

وادركت ان عمها ودونا صوفيا قد احسا بانشغال ذهنها وكان عمها هو البادئ في التعبير عن قلقه حيالها فسألها:

«هل انت بخير يا جيني؟».

فابتسمت تطمئنه وقالت:

«اني بخير. بكل خير. شكراً لك يا عمي».

«تبدين وكأنك مشغولة البال».

وحاول ايجاد الكلمات الضرورية للتعبير عن نفسه لكن بديه عبرتا عن عبث هذه المحاولة فابتسم من جديد غير ان انطونيو قاطعها، قبل ان يتسنى لها معاودة تطمين عمها وقال مخاطباً والده:

«خلقها ضيق يا ابي. هل استعملت اللفظ الصحيح يا جيني؟».

لم تستطع تفادي مجابهة تحدي عينيه السوداوين فسارعت الى الدفاع عن نفسها من دون تردد وقالت:

«لست ضيقة الخلق. ولقد ظننت انك لا توافق على استعمال الألفاظ العامية. . .».

قاوم نظرها لبعض الوقت ثم ضحك ضحكة عذبة وكأنه يستمتع بفكاهة دفينة وراح ينظر الى خديها وقد احمرا والى عينيها البراقتين تلمعان. ثم قال لها بصوت رقيق:

«امتنع عادة عن استعمال العامية بداعي حسن السلوك لكنني من وقت الى آخر. . .».

وقاطعته جيني بسرعة:

«احسبك لا تعتبرني جديرة بالمعاملة اللبقة».

ورأت يد الوالد تكتنف يد الابن عفرة. وتكلم رفائيل متوسلاً بلطف:

«طونيو».

وتفحصها مجدداً بعينيه السوداوين ثم هز رأسه وقال بصوت عذب:

«سأتوقف عن مضايقتك اليوم خصوصاً انك لست في احسن حالاتك يا ابنة العم الصغيرة، اعذروني».

وتابع تناول افطاره لبرهة ثم نظر اليها مجدداً ورفع حاجبه وسألها:

«هل تنوين دراسة الاسبانية هذا الصباح؟».

ورفعت جيني كتفيها غير متلهفة ابداً للانزواء برفقته لساعة او اكثر في المكتب ولا سيما في هذا الظرف. كانت واثقة من انه اذا ما بالغ في تأنيبها فسوف تتطرق الى موضوع ماريا غازاريس.

وقالت له بصوت افهمه تماماً ما يخالجها من شعور:

«ان شئت فنعم».

فعقد حاجبيه. ثم قال لها باقتضاب:

«انك المستفيدة الأولى من تلك الدروس. فان كنت ترغبين في البقاء في مستنقع الجهل فاني لا استطيع اجبارك على التعلم».

صمت لوقت قصير وكأنه متدهش لعدم مبالاتها ثم اعاد النظر في

المسألة وعرض عليها قائلاً:

«هل تفضلين الذهاب في السيارة لمشاهدة الجياد. لقد وعدتك منذ زمن بمرافقتك لرؤيتها».

وسرعان ما ساورها الشك في دعوته هذه التي اتت بعيد اطلاعها على هوية رفيقته وارتابت لدعوته لها في هذا اليوم بالذات. ولم يفتها تبادل النظرات السريعة بين عمها وزوجته وتساءلت عن معناها. وسألته:

«هل ترغب فعلاً في مرافقتي؟».

ورمقها متعجباً:

«بالطبع. الم اعرض عليك مرافقتك من قبل؟».

وادركت انه جاهل لمعرفتها بوجود ماريا غازاريس وللقائه بها أمس وكان من الواضح انه لو لم يتوقع عدم رؤيتها اليوم لما عرض عليها ان ترافقه. وادركت انها قد استرسلت في تأملاتها لوقت طويل ورأته يرمقها بفضول متسائلاً حول اسباب ترددها. وقالت له:

«هذه هي المرة الأولى التي تشدد فيها دعوتك. كنت اتساءل هل كنت. . .».

وانتبهت بصورة خاطفة الى القلق الذي ظهر على وجه عمها فهزت رأسها واضافت بصوت مبهم:

«لا شيء. . .».

سمعت انطونيو يتنهد بعمق ثم رمقها بثبات وهز رأسه ثم قال:

«لا افهمك. لماذا ستغيرين دعوتي لك اليوم؟».

عجزت جيني عن ايجاد جواب يمكنها من تفادي الخوض في تفسير طويل ومربك فاكتفت برفع كتفيها وتابعت تناول الافطار مدركة انه يراقبها وقد نفد صبره. ووافقت اخيراً قائلة:

«لا ادري».

ورمقته ثم لعقت بعض العسل عن شفتيها باسلوب استفزازي ولاحظت ان عينيه السوداوين ازدادا لمعاناً لرؤيتها وكأنها رأت امامها

شيئاً لم تفهمه كلياً لكنه جعلها ترتعش. وتنهد من جديد وقال بصوت رقيق:

«اترك لك الخيار. اما ان تتعلمي الاسبانية او تأتي لمشاهدة الخيل».

فقالت له وهي تلعق اصابعها وترمقه بطرف عينها:

«افضل مشاهدة الخيل، شكراً».

وتساءلت عن سبب اضطرابها بهذا الشكل اليوم ثم اضافت بصوت ناعم:

«آمل الا يربكك قدومي».

واتضح لها ان رفائيل قد فهم قصدها كل الفهم ورماها بنظرة معاتبة انتبه لها ابنه ايضا ورماها مستعرأ وقد نفذ صبره:

«اربالك!! وكيف لك ان تربكيني يا جيني؟».

احست وكأنها في سجن عينيه الداكنتين تحدقان فيها فعضت على شفتها فيما نظرت الى رفائيل متوسلة مساندتها:

«كنت اعني...».

ورفعت كتفيها يائسة حين ادركت انها لن تلقى عوناً من عمها ثم صاحت:

«لا اهمية لذلك. حتى انت لا تستطيع ان تكون فاقد الحس الى هذا الحد».

نظر اليها انطونيو طويلاً وقد ضاقت عيناه حتى احست بخفقات قلبها تتسارع. وقال لها بصوت لطيف ثم رمق اباه:

«اظن انك ستوضحين قصدك يا جيني. لكن فيما بعد وفي غير هذا المكان».

وكان رفائيل يهز رأسه قلقاً ونظر الى كل من جيني وزوجته قبل ان يتكلم قائلا:

«انطونيو... جيني تعني ان...».

فقاطعه انطونيو بسرعة وقد تابع التحديق في جيني:

«لا عليك يا ابي لدي اسلوبي الخاص لمعرفة قصد جيني».

ثم اضاف شيئاً بالاسبانية لم تفهمه وضحك ضحكة ناعمة عندما انتبه الى دهشتها المشككة. ثم نهض متمتماً عذراً وانحنى في اتجاهها فوق الطاولة حتى اقترب وجهه الاسمر من وجهها وقال:

«ان تعلمت الاسبانية بسرعة تسنى لك فهم ما اقوله عنك يا عزيزتي الصغيرة».

وضحك من جديد واحست بنفسه الدافىء يداعب ثغرها...

لم تستغرق الرحلة الى الاسطبل مدة طويلة لكن جيني استمتعت بها على رغم مشادتها مع انطونيو وارتيابها لتوقيت دعوته لها. ادركت انه سيطالبها عاجلا ام آجلا بتوضيح قصدها من التلميحات المبينة التي بدرت عنها والمتعلقة بماريا غازاريس وبانعدام الاحساس فيه.

كانت قد زارت بعض الاماكن منذ وصولها ولكن اقل مما رغبت فيه وكانت دائمة الافتتان بالريف الاسباني وتحب رؤية كروم العنب الشاسعة التي كست التلال بلونها الاخضر المتناقض مع لون اشجار الزيتون الرمادي. وتناثرت مجموعات من المباني البيضاء وسط خضار الطبيعة. وسحرتها القباب التي تناطح السحاب.

واطلت عليها عند منعطف مجموعة من البيوت البيضاء القديمة ذات السقوف المصنوعة من الطين وأعجبت بهندستها قبل ان تدرك ان الفقر لا الحس الهندسي هو الذي اضفى عليها بساطتها. لكن الفقر هذا لم يكن ليحول دون احساسها بالسعادة لرؤيتها باب منزل يتوهج في نور الشمس الساطعة او ازهار خبازى حمراء تقاوم بعزم حرارة الشمس الاسبانية المحرقة.

وقد سحرتها رؤية الاطفال الممتلئي الاجساد، السمر البشرة، وانصاف العراة اكثر من اي مشهد آخر. يلهون على جنبات الطريق المغبر ويلوحون بغبطة تامة لرؤيتهم السيارة وتبتسم عيونهم البراقة السوداء بمودة لدى رد جيني التحية.

«هل تحبين الاولاد؟».

فوجئت جيني بالسؤال ولم تكن تتوقعه واحست باحمرار خديها فيما حاولت فهم سبب ارتباكها. ظنت ان لسؤاله طابعاً شخصياً.

ووافقت قائلة:

«احب اولئك الاطفال السمر... فهم كالدمى».

وسألها مبتسماً:

«الا يشبه الاطفال الانكليز الدمى ايضاً؟».

وهزت برأسها موافقة ثم قالت:

«بعض الشيء. لكن نظافة مظهرهم المتناهية ولونهم الزهري لا يشجعان المرء على حملهم ومداعبتهم».

ثم نظرت الى مجموعة اخرى من الوجوه الصغيرة والسمر ولوحت بيدها وقالت:

«لست ادري ولكني احس برغبة في مداعبة اولئك الاطفال اكثر من رغبتي في تنظيفهم، انهم رائعون».

وسمعت رنين ضحكته الناعم والعميق فانزعجت ورمقته بفضول وبعض شك لكنه قال بصوت رقيق:

«اذن ها قد وجدت، اخيراً شيئاً تحبينه عندنا. حتى ولو اقتصر الأمر على اولئك الاطفال القذرين».

ودافعت جيني عن نفسها غريزياً وقالت:

«هذا غير صحيح. لم اقل قطّ ان هناك اشياء لا تعجبني في بلدكم».

«أهاه... اذن انت تحبينها».

انزعجت لابتسامته وادركت اخيراً انه كان يحاول اثارة رد فعل غاضبة لديها. وبدا وكأنه يسرّ احياناً لفقدانها السيطرة على اعصابها وان كان يستاء حين تبالغ في استفزازه. وقالت:

«انني احب البلد واهله».

نظرت اليه بطرف عينها وتابعت بصوت رقيق:

«الا البعض من اهله بالطبع».

ورمقها ثم قال:

«اهاه، وانا المستثنى».

ردت بالايجاب:

«نعم. معظم الوقت».

ثم التفتت في اتجاهه متحدية واضافت بسرعة:

«لا تدّع انك لم تتوقع مني ان اقول هذا. لقد كنت تحاول استفزازي يا انطونيو كعادتك».

وضحك فتوهجت اسنانه الناصعة البياض وسط ملامحه الداكنة والصقرية ثم هزّ رأسه:

«اني مخطىء بتصرفي هكذا يا جيني اليس كذلك؟».

فاجابته بعد ان رمقته بطرف عينها:

«انت لست عادلاً».

لم تكن واثقة من فهمها لطرافة مزاجه في هذه اللحظة وبدأت تتساءل عن صحة قرارها مرافقته. وكان يملك القدرة على ارباكها اكثر من اي شخص آخر عرفته في حياتها ولم تكن مرتاحة ابداً لوجوده معها في هذه اللحظة. وسألها بصوت ناعم:

«وكيف لي ان اجعلك تبدلين رأيك فيّ يا ابنة عمي الصغيرة؟».

ونظرت اليه مجدداً مندهشة بعض الشيء، ثم اجابته:

«وهل يهمك فعلاً ان اغير رأيي فيك؟».

«افضل لو اقدمت على الزواج مني وانت تكنين لي بعض المودة في الاقل».

وصعقت جيني لصراحته وانقبضت يداها فيما راح قلبها يخفق ذعراً وابتعدت عنه لا شعورياً. كانت وكأنها نسيت انه مصمم على الزواج منها اذ كانت مصرّة منذ البارحة على اعتباره عشيق ماريا غازاويس. وكانت تتساءل بقلق عن اسباب قبولها المتزايد للفكرة هذه.

وراحت جيني تراقب ذراعيه العاريتين والقويتين وكتفيه

نفسها في حلم لكنها وجدت نفسها تمد يدها الى عنقها لكثرة اضطرابها.

خرج من البوابة الحديد ولما استدار لاقفالها وقع نظره عليها. لم تحرك جيني ساكناً بل حبست انفاسها حين رفع يداً سمراء يلوح لها:

«صباح الخير يا خوانيتا».

ودهشت لسماعها اللفظ الاسباني لاسمها وهو نادراً ما كان يستعمله فيما وقف في الظل يراقبها. استعادت رباطة جأشها بسرعة فحيته:

«صباح الخير يا انطونيو».

لوح في اتجاهها مرة ثانية ثم اوصد البوابة ومشى ثم توارى بين الشجيرات الكثيفة. ولبثت جيني مكانها لبضع دقائق تنظر الى مكان تواريه، مقطبة حاجبيها فضولاً. خيل اليها انها لاحظت شيئاً في تصرفاته يختلف عن بقية الأيام وكأنه كان في اوج السعادة لسبب او لآخر.

استحمت جيني ثم ارتدت ملابسها بتأن ولم تخطط للقيام بأي عمل هذا الصباح وقررت الاستمتاع بهذا النهار الرائع. كانت مقتنعة ان الوقت لم يحن بعد لدرس اخر في الاسبانية مما يتيح لها الخروج للتنزه ان وجدت النشاط الكافي لقيادة السيارة التي اشترتها حديثاً.

في اثناء تناولها الافطار لاحظت انها لم تزل تتساءل عن اسباب سرور انطونيو ورأت نفسها تسأل عمها عن الاصطبل الذي يحتفظ فيه انطونيو بجياده. لم تنتبه للصمت الوجيز، لكن المغير الذي واجه به سؤالها لكنها التقطت ايماءة دونا صوفيا في اتجاه زوجها الذي هز رأسه مما اثار فضول جيني فنظرت اليهما الواحد تلو الآخر ثم سألت:

«لا اظن ان المكان بعيد. لا تنس انني املك سيارة الآن».

ورمق رفائيل زوجته ثم قال:

«المكان قريب ولكن ابنها الطفلة جيني هل تريدين قطع تلك المسافة لمجرد رؤية الخيل؟».

واتضح لها انه يحاول ثنيها عن قرارها وتساءلت عن دوافعه فنظرت اليه نظرة متسائلة وقالت:

«لا امانع ابداً يا عمي رفائيل. كنت انوي الذهاب لرؤية جياد انطونيو وقد دعاني مراراً الى مرافقته وقد خرج باكراً هذا الصباح ولم يكن في وسعي ذلك».

وازدادت علامات القلق على وجه رفائيل الطيب وكان متلهفاً ان يقنعها ثم مد يده وغطى يدها بأنامله اللطيفة وقال:

«لربما خرج يمتطي جواده في الحقول ولن تجديه. من الأفضل ان تنتظري حتى يرافقك هو بنفسه».

وخاطبت دونا صوفيا زوجها بالاسبانية وبصوت خافت ولم تلتقط جيني من كلامها سوى لفظة «خطيبة» وقفز قلبها فجأة وتأكدت انها ليست المعنية بكلمة «خطيبة» وعادت الى ذاكرتها «الآنسة».

وزاد فضولها فرمقت عمها بثبات وسألته بصوت هادئ:

«هل ينزعج انطونيو ان ذهبت. يا عمي رفائيل؟».

رمق زوجته مجدداً قبل ان يجيب وادركت ان سؤالها احرجه. لكنه سألها:

«ولماذا ينزعج؟!».

وادركت صحة تكهناتها لأن عمها لم يستحب قط فكرة خافها به مما يعني ان انطونيو برفقة امرأة هناك. لم تكن تبالي للأمر لكنها شعرت ان لا حق له بأن يطالبها بالزواج به وهو يقابل نساء اخريات. ويحق للخطيبة ان تستاء من هذا الأمر وان لم تكن سوى خطيبة مجبرة.

وقالت مخاطبة عمها بصوت هادئ ومن دون ان تنظر اليه:

«لقد ظننت انه ذهب ليركب الخيل بمفرده لكنني ادركت الآن انه

السراويين وقد امسكتا بالمقود وكأنه يستخف بالآلة الجبارة التي يقودها. وكان سحره القاسي يحرّك فيها اشياء خفية تربكها على رغم شعور متأصل فيها بعدم الوثوق به وتمنت لو استطاعت ان تكون اقل انفعالاً وان تتعاطى مع ملاحقته الضاغطة عليها بموضوعية اكبر. وقالت محاولة السيطرة على ارتعاش صوتها:

«اظن انه سبق لي ان عبّرت عن رأيي في الموضوع بوضوح تام لن يتم اي زواج بيننا يا انطونيو او بالاحرى لن نتزوج نحن الاثنين».

وظنّت لوهلة انه اندهش لحوارها وما ان تكلم حتى ادركت السبب:

«هل تحبين شخصاً آخر. هل هناك رجل ينتظرك في انكلترا؟»

اغراها للحظة ان تكذب عليه للتخلص منه لكنها تذكرت انها كانت قد اعترفت له من يوم بصوتها ان لا ارتباطات جدية لها في انكلترا. ومن الصعب ان يكون قد طرأ اي تغيير على ذلك في اثناء مكوثها في اسبانيا. فوافقت ولو على مضض واجابته.

«كلا. لا رجل في حياتي».

«عظيم».

«ليس مهما ان كان في حياتي رجل او لا».

وابتسم وكأنه فاته تشديدها العفوي على لفظة «أنا».

والتفتت نحوه فلاحظت كيف اضفى نور الشمس القوي على ملامحه الصقرية طابعاً قاسياً وجاداً ولّد لديها خوفاً وبهجة في الوقت نفسه من دون ان تدرك السبب. واستدار للحظة في اتجاهها وقد سطعت عيناه وقال لها بصوت رقيق:

«هذا مهم بالنسبة اليّ ايتها الطفلة الصغيرة. اذ لا احب ضرّ رجل في خطيبته فهذا امر غير لائق».

وانكمشت يدا جيني بقوة في حضنها وحدقت غاضبة في وجهه الداكن والمتعجرف وقد ومضت عيناها وصاحت به:

«ان تحاول جبري على الزواج أفهذا امر لائق في نظرك؟ يا لغرابة مفهوم اللباقة عندك يا انطونيو».

وابتسم لحظة وكأنه لم يحفل احتجاجاتها على محمل الجد وقال لها بصوت من اعتاد على السلطة المطلقة:

«أهاه. . . اعتراضك ليس الا بداعي المشاكسة النسائية. لا ارى اي سبب آخر وراءه».

وذهلت للهجته لكنها اجابته وقد قررت زعزعة ثقته بنفسه بأي ثمن:

«الأمر هو انني لا احبك».

لكنه راح يبتسم ويهز رأسه مجيباً بكل ثقة:

«انني لا اصدقك».

حدقت به جيني وصاحت:

«انطونيو. . .».

لكنه قاطعها بلطف قائلاً:

«الا تظنين انه حان الوقت لأن تناديني كما تفعل عائلتي؟ وطونيو هي المرادف لطوني بالانكليزية فهي حميمة اكثر من لفظة انطونيو».

وأومأ بيده محملاً كلمته الحميمة ابعاداً كثيرة حتى احست باحمرار خديها وقال لها بصوت ناعم:

«تنوين استعمالها أليس كذلك يا جيني؟».

وقالت جيني لاهثة:

«لا لن افعل. لن اقوم بأي عمل لتشجيعك يا انطونيو».

وهز رأسه الداكن ببطء وهي لم تجد الشجاعة الكافية للنظر اليه والا كانت رأت الابتسامة الخفيفة التي شقت ثغره. وسألها بصوت لطيف:

«يا لتصميمك على معاداتي يا ابنة العم الصغيرة. كيف لي ان اعاملك، كيف يمكنني كسب مودتك؟».

«في امكانك الكف عن الحديث عن زواجك مني وطلب يد

الآنسة ماريا غازاريس عوضاً عني».

وعضت جيني لثوها على شفتها عندما ادركت ان تهورها رمى بها في داهية.

كان من الواضح ان تصريحها فاجأه، لكنه ما لبث ان استعاد رباطة جأشه وعقد حاجبيه ثم قاد السيارة الى حافة الطريق وضغط على الكابح فجأة وبعنف فارتمت جيني من مقعدها الى الأمام وصرخت من خوفها.

لم ير انطونيو اي خطورة في طريقة ايقاف السيارة بل استدار في مقعده ونظر اليها بقساوة. ومد ذراعه الى ظهر المقعد خلفها. وباتت تحس بالعنف الغاضب والمتوتر الذي اجتاحه فيما حدقت فيها عيناه الداكنتان والبراقتان. كان واضحاً انه غير راض ابداً عن معرفتها لماريا غازاريس وقد كان في استطاعتها أن تفهم ذلك. قال:

«اذن، فهمت الآن قصدك من ابدائك كل تلك التلميحات حول عدم رغبتك في المجيء الى الاسطبل هذا الصباح. مع من كنت تتكلمين يا جيني؟».

وشرعت جيني قائلة:

«لا حق لك...».

لكنه قاطعها بحركة من يده الضخمة اسكتتها. وسألها بصوت رقيق جداً جعلها ترتعش:

«ماذا تعرفين عن ماريا غازاريس؟».

«اعلم انك ركبت الخيل برفقتها البارحة».

«وهل يعنيك هذا الأمر؟».

وهزت جيني رأسها وقالت متحدية:

«لا. بالطبع لا يعنيني. واعرف ايضاً انك... او كنت تنوي الزواج منها... وانك لا تزال تأمل في تحقيق ذلك».

«من قال لك هذا؟».

أتى السؤال وجيزاً لكنه زاد من ارتباكها وراحت تحدق في يديها

المتشابكتين في حضنها وقالت مستنكرة:

«لا حق لك في استجوابي وكأني مجرمة امامك».

حبست انفاسها عندما شعرت فجأة باصابعه القوية تمتد من ورائها وتمسك كتفها بقوة. وامرها بلهجة هادئة:

«اجيبي على سؤالي. من حدثك عن ماريا غازاريس يا جيني؟ فأنت تورطت بما لا حق لك. ومع من تحادثت؟».

وحاولت جيني الافلات من قبضته لكن عبثاً وبدأت تحس بالغضب لسوء معاملته لها فصاحت بحدة:

«دونا صوفيا اخبرتني. واترك كتفي الآن. انك تؤلمني. يا انطونيو».

«آه انها والدتي اذن!».

لم يرخ قبضته وحاولت الافلات من جديد لكنها لم تنجح لضيق المكان في السيارة. وسألها وكأنه يزدري جهودها الفاشلة:

«لماذا اخبرتك امي عن ماريا غازاريس؟ الا تحرضيها انت على الكلام وذلك بدافع من فضولك».

وثار عنفوان جيني فقالت:

«كلا لم يكن بداعي فضولي. لا اهتم ابداً باصدقائك».

«اذن لماذا؟».

«لانها ارادت ان تعلمني اني خربت مشاريع زواجك من الآنسة غازاريس بحصولي على حصة جدتي من المؤسسة».

وكادت ان تبكي لكثرة غضبها. لكنه اعلمها بصوت بارد ادهشها:

«لم تفعلي شيئاً مما تدعينه».

واضافت حانقة:

«تلومني امك ايضاً لانني السبب وراء جشعك وهي لا تلومك ابداً انت بل تريدك ان تتزوج من الآنسة غازاريس وهي تدعي انك كنت تزوجت منها لولا امتلاكي شيئاً تريده فعلت».

«وهل فعلت ذلك؟».

وبدا غير مبال للأمر مطلقاً مما اربك جيني فنظرت اليه ثم قالت بلهجة اتهامية:

«ركبت الخيل برفقتها».

وساءلت نفسها في صواب النبرة الاتهامية واسباب سخطها هي التي كانت تعتقد انها غير معنية بركوبه الخيل برفقة ماريا غازاريس او غيرها من النساء حتى ولو فعل ذلك كل يوم من ايام حياته. ووافق على كلامها بصوت هادىء:

«نعم ركبت الخيل برفقتها».

ولم تستطع جيني تصديق هدوئه كما اراد الظهور لكنه اضاف:

«لقد عرفت ماريا مذ كنا اولاداً وركبت الخيل معاً احياناً».

وتفحصتها عيناه الداكنتان بدقة وتمعن مما زاد في ارتباكها ثم سألها بصوت هادىء:

«انت لا تركبين الخيل يا جيني؟ اليس كذلك؟».

فأجابته بلهجة قاطعة:

«لا اركب الخيل ولكنك لست مضطراً، لأن تفسر لي اي شيء؟».

لكنه قال لها:

«اود تفسير الأمور لك».

ولم ترد جيني لوهلة بل راحت تحلق في اصابعها المتشابكة وقالت اخيراً:

«اخبرتني دونا صوفيا انك كنت تزوجت ماريا غازاريس لولا حصولي على حصة جدي».

والتوت شفته السفلى معبرة عن استخفافه بقولها وقال بصوت هادىء:

«يجب ان تدركي ان لا احد يستطيع اثنائي عن قراراتي».

«ولكن...».

حدقت فيه للحظة محاولة فهم قصده ومدى تعلقه بماريا غازاريس. فان كان فعلاً يحبها فمن الصعب او حتى من المستحيل ان تتصور انه قاس الى درجة تجعله يتخلى عنها ويضحي بها من اجل الحصول على ملكية المؤسسة العائلية بكاملها فسألته لاهثة:

«وماذا عن ماريا غازاريس؟».

وحدقت فيها عيناه السوداوان وخيل اليها ان في استطاعتها قراءة مئات الاشياء في غورهما وهي اشياء جعلتها ترتعش ترقباً. ثم قال لها بصوت هادىء:

«عليك الا تكترثي لماريا ابداً. لا دخل لها ابداً بمخططاتنا».

واصرت جيني:

«انها مخططاتك انت لا مخططاتنا».

وقد انزعجت من الاسلوب الذي اطاح به بالمرأة التي اصرت والدته عليه للزواج منها. وقال بصوت هادىء:

«تشملك المخططات يا صغيرتي. فهي اذن مخططاتك ايضاً».

ثم ابتسم لبرهة وزادت نصاعة اسنانه التي توهجت في دكنة وجهه واضافت قائلة:

«لكن اذا كنت فعلاً تنوي الزواج من الآنسة غازاريس، واذا كنت تكن لها المودة فكيف تستطيع حتى التفكير في الزواج مني؟».

وبانت اسنانه مجدداً من خلال ابتسامته وحدق فيها فيما راحت الافكار المقلقة تتلاعب بذهنها. وسألها بصوت هادىء:

«الم تقرري انت انني مقدم على الزواج منك للتحكم بحصتك في المؤسسة».

وهزت رأسها محاولة تنقية افكارها من البلبلة ثم وافقت قائلة:

«لست ادري. اخبرني عمي رفائيل ان جدي اراد ان... او بالأحرى اراد منك ان تتزوجني حتى تتحد العائلة ولكن آه.. لست ادري...».

ونظرت اليه متوسلة وقلقة وحاولت التكهن بما يجول في ذهنه

وسألته:
«الا... الا تريد الزواج من الآنسة غازاريس؟».
وابتسم ابتسامة متأنية ومثقلة بالمعاني زادت من اضطراب جيني، ثم وافق قائلاً بهدوء:
«لربما كنت تزوجتها في غير هذه الظروف. لكن القدر اراد غير ذلك. لذا...»
ورفع كتفيه بحركة تعبر عند المتحدرين من اصل لاتيني عن اكثر مما تعبر عنه الكلمات ونظرت اليه جيني واحست بدمها يجمد في عروقها، اذ ايقنت انه مستعد لاي شيء لنيل ما يريد.
وقالت له بصوت خافت تتهمه:
«ولكن حصل ان ورثت ما تعتبره ملكاً لك وها انت تتخلى عن الفتاة التي تحبها، انت مستعد للتضحية بها لانك لا تقبل ان يمتلك شخص ما تعتبره لك. انت مهتم بمؤسستك الثمينة فقط. انك اكثر الناس قساوة و... يا لفظاعتك».
«جيني!».
لم تأبه جيني لتحذيره الرقيق اللهجة لكثرة غضبها. وكانت في حال من التذبذب العاطفي لا توصف وكانت تواقة الى ايذائه ودفعه الى الاحساس فسألته وقد لمعت عيناها واحمر خداها:
«اتتخلى عن الفتاة التي تحبها من دون اي تردد وذلك من اجل الحصول على ما تريد؟».
وقال لها انطونيو بصوت هادئ وهو يحدق فيها:
«لم اقل انني في صدد التخلي عن الفتاة التي احبها. لا ارى ضرورة لذلك. احب ان ارمي عصفورين بحجر واحد ولمَ لا؟».
«انت...».
حدقت فيه لبضع ثوان ولم تكن فهمت قصده بعد، ثم تراءى لها فجأة ما عناه ونظرت اليه مشدوهة ورفعت يدها الى ثغرها لصدمتها. وتكهنت بانه بعد ان يتزوجها، وهي مدركة في قرارة ذاتها انها

باتت اقل رفضاً للفكرة مع مرور الزمن، ويتحكم بحصتها في المؤسسة بصفة كونه زوجها الشرعي، سوف... وارتعشت حين تذكرت قدرته على التصرف بقساوة احياناً، ففي السيارة مثلاً وفي طريقها من المطار الى المنزل ثم في جو المصنع البارد حين لامست اصابعه عنقها لبضع ثوان، كان يضحك في كل مرة ويقنعها بانه يحاول فقط اغضابها لكثرة خوفها منه وكانت مستعدة لان تصدقه ولكن الآن...
واحست فجأة بانها وقعت في فخ في هذا المكان المقفر من الريف الاسباني ولا من احد ينجدها. ولم يخطر ببالها انه اذا ما اذاها في هذه اللحظة نفذ كل ما كان يخطط له وبحثت عن مقبض الباب، وخلا ذهنها الا من فكرة الفرار، باسرع وقت ممكن من دون ان تعلم الى اين.
«جيني!»
وكانت صرخته صرخة تعجب اكثر منها غضباً وجاهدت تحاول فتح الباب والدموع تنهمر على خديها لاخفاقها. ثم تذكرت انه من عادته ايضاً قفل الباب في اثناء مرافقتها له ففتحت القفل بسرعة. وصاح بها:
«جيني توقفي».
وحاول امساك يديها لكنها قاومته بيأس. فصاح من جديد:
«خوانيتا يا الهي هل جننت».
وتطاول فوقها حتى استطاع اعادة اقفال الباب ثم اخذ يديها بين يديه وقبض عليها بقوة اصابعه فيما حاولت جاهدة الافلات منه وقد اعتراها الذعر الشديد. وصاحت قائلة وهي تشد يدها السجينة محاولة الافلات:
«اتركني... اتركني».
وخاطبها، راجياً، بالاسبانية:
«جيني حبيبتي ماذا تحاولين ان تفعلي؟ يا للهول ما بك؟».

ولو لم تكن في حالة من الذعر الشديد لارشدها استعماله للغته الأم الى قلقه العميق لكنها استمرت عبثاً في محاولتها الافلات:

«اتركني ارجوك ان تتركني».

وسألها:

«ولكن يا صغيرتي ما الذي تفعلين؟».

امتلأت عيناه السوداوان لطافة كما لم ترهما قبلاً فيما راحت يده السمراء الضخمة تداعب ذراعها وتندفع بخفقات قلبها نحو التسارع المجنون ليس خوفاً هذه المرة.

«ما يدفع بك الى الهرب فجأة يا صغيرتي؟».

وساهم صوته العميق والرقيق ويده العذبة على ذراعها ونظرة اللطف العميقة في عينيه في التخفيف من ذعرها لكنها ولدت فيها احساسات اخرى اكثر اضطرابا ونظرت اليه بعينين زائغتين وعضت على شفتها للحظة قبل ان تستطيع اجابته بصوت خافت:

«كل ما اريد هو الابتعاد عنك. انني خائفة».

«خائفة؟».

نظر اليها بثبات للحظة ثم هز رأسه وكأنه نادم بعض الشيء وعاتب ايضاً وقال لها بصوت ناعم:

«اذن ما زلت تظنين انني انوي ايذاءك؟ يا لك من مجنونة!».

ورأى الخوف يفيض من عينيها فهز رأسه وامسك يديها بلطف بين راحتيه الكبيرتين الدافئتين. وبدأت جيني تقول له:

«ارجوك».

لكنه تابع هز رأسه وسألها بنعومة:

«ماذا ظننت انني سأفعل بك؟».

وتساءلت للحظة عما اذا كان يلعب معها لعبة القط والفأر لكن لطافة يديه ونعومة صوته اشارتا الى عكس ذلك اذ خلتا من القساوة التي ظنت انها رأتها فيه بعض المرات وهزت رأسها فيما علق نظرها على النبض الخافق في اسفل عنقه الأسمر وسألها بلطف قائلاً:

«كيف لي ان اقنعك انني لن اؤذيك». ثم ابتسم وتابع: «لا بد من ايجاد طريقة اليس كذلك يا جيني؟».

وهزت رأسها فيما احست بنبض يخفق عند صدغها ينذرها باحاسيس لا يمكن تجاهلها وقالت:

«اتمنى. اتمنى لو...».

لكنها لم تستطع اكمال الجملة اذ انحنى فجأة نحوها والتصقت بمقعد السيارة. وانزلقت ذراعاه حولها تشداتها الى صدره الرحب فيما حاول معانقتها.

ورغم انها اضطربت للطافة حركته الأولية ثارت غريزتها لعنف محاولته معانقتها فقبضت بيديها تلقائياً على صدره ثم فتحت انامها واحست بخفقات قلبه من خلال القميص الرقيق لكن على رغم تجاوبها معه عاودها بعض من حذرها القديم وضغطت براحتيها المفتوحتين على الجسم الدافىء الذي بدا وكأنه يغلفها وابعدت فمها عنه وحبست انفاسها ثم اغمضت عينيها لتفادي مشاهدة اللهفة التي ملأت عينيه السوداوين وملامحه الصقرية.

وراح ينظر اليها مشدوهاً فيما تابع امساكها بين يديه فلم تتمكن من الافلات من تلك اللمسة المتوترة وكان قلبها يخفق بسرعة مجنونة حتى كادت تنقطع انفاسها واعجب ما في الأمر ان الطبيب لم يلاحظ كل هذه الأمور بل اعتبر صدها المفاجىء له دليلاً على برودتها وعدم تجاوبها معه.

فنظر الى ملامحها الدقيقة والناعمة وقد اغمضت عينيها للحظة ويداها على صدره وكأنها تحاول ابقاءه بعيداً عنها ثم همس:

«يا لك من امرأة خجولة. لماذا تتصرفين وكأنك اصغر المخلوقات واكثرها خجلاً يا جيني؟ لا اصدق انك ما زلت تخافين مني ايتها الصغيرة؟».

وجاهدت جيني لالتقاط انفاسها وهمست بسرعة:

«ارجوك... لا استطيع».

وسألها:

«الا تحبين المعانقة؟ هل هذا هو السبب؟».

وقبل ان تتسنى لها الاجابة عاود معانقتها بلطف ثم ابتسم وقال وهو يحدق في فمها:

«عليك تعلم الكثير يا حبيبتي. لكن لا تخافي فساعلمك... ساعلمك».

احست جيني وكأن تياراً يجرفها واسوأ ما في الأمر انها بدأت تميل اكثر فأكثر الى الاستسلام في حالات مماثلة. وقررت الا تنجرف من جديد فحاولت دفعه بعيداً عنها وفوجئت به يبتعد عنها ويعود الى مقعده. لكن الابتسامة لم تفارق ثغره وبرقت عيناه السوداوان فيما مرر يده في شعره الكثيف الاسود. وكما قال من قبل فهو لا يدع احداً ولا اي شيء يحول دون تحقيقه رغباته. وقالت له جيني بصوت خافت:

«افضل... اود العودة ارجوك انطونيو».

وجلست ويداها في حجرها محاولة اسكات ارتجافهما. واستدار ونظر اليها لبرهة بيد انها تفادت نظره ثم قال بلطف:

«انني اقوم بمرافقتك لمشاهدة الخيل ايتها الصغيرة».

واكتفت جيني بالايماء ايجاباً من دون ان تتكلم محاولة تجاهل ابتسامة الرضى التي لم تفارق ثغره فيما اطلق عنان السيارة من جديد. واحست جيني انه لا جدوى من مقاومة ارادة حديدية لا تقهر كارادة انطونيو فرنسيسكو.

٥- على ظهر «العاصي»

ادركت جيني ان محاولتها تعلّم كل أساليب ترويض العصبي ومراحله مسألة تتخطى طموحاتها خصوصاً بعد ان اعلمها انطونيو ان العمر بكامله قد لا يكفي لذلك، لكنها زارت المعمل مرات عدة برفقة انطونيو احياناً وبرفقة عمها احياناً أخرى حتى باتت الآن تملك بعض المعلومات الاولية تخولها ابداء اهتمام اذكى من قبل، وتابعت حضور دروس الاسبانية اكراماً لعمها الذي بدا متلهفاً لتعلمها اللغة لكنها رافقت انطونيو الى الاسطبل ايضاً اربع مرات او خمساً بعد الحادثة المذكورة. لم يفارقها حذرها منه لكنها اقتنعت بانه لا ينوي ايذاءها جسدياً لكن كان عليها الحذر باستمرار من نواياه في الزواج منها.

كان النهار حاراً ومشمساً وشعرت جيني بالكسل وقد اكتفت بحساء بارد اثناء الغداء التقليدي المتأخر. وقد انعشها الحساء المصنوع من خضر والذي يقدّم بارداً وأدركت انها باتت تحب كثيراً هذا النوع من الأكل. وقد مضى شهران ونيف على قدومها الى اسبانيا واحست بانها تكيّفت مع البلد اكثر مما كانت تتصور.

كانت تشتاق بالطبع احياناً الى مناخ الصيف الانكليزي البارد والمنعش والى اصدقائها هناك، لكن لم يكن لديها الوقت الكافي لتحنّ للعودة الى الوطن لكثرة انشغالها ونشاطاتها. وقد ارتاحت لرفقة انطونيو في الاسبوعين الاخيرين اكثر من ذي قبل وهو لم يتطرق الى

موضوع الزواج من جديد. دونا صوفيا وحدها استمرت في موقفها العدائي والمتشنج وغالباً ما كانت جيني تأسف لانقطاع الاتصال بينهما، الأمر الذي احزن عمها

كان جو المكتب الكبير والمشمس حيث تدرس الاسبانية، منعشاً جداً اذا ما قورن بالحر الشديد في الخارج حين جلست جيني وراء مكتبها الصغير مسرورة. وشرعت تقرأ او تحاول القراءة في كتاب اسباني يتناول موضوع الفن فيما جلس انطونيو بالقرب من النافذة يتداول بعض اوراق العمل.

وراحت أفكار جيني تختال بعيداً عن عالم الفن خصوصاً حين يكون مكتوباً بالاسبانية ويتضمن الكثير من الكلمات التي لم تفهمها وغالباً ما سرحت نظراتها نحو النافذة المفتوحة بالقرب من انطونيو حيث تدلت الورود المثقلة بالعطور تحت الشمس المحرقة فملأت الغرفة عطراً.

ولم تكن تدرك ان انطونيو يراقبها الا حين سمعت صوته يعيدها من دنيا التخيلات الى واقع المكتب. وأحست بالذنب بادىء الأمر ثم رمقته للحظة متوقعة ان يؤنبها لاسترسالها في احلام اليقظة واستعدت للدفاع عن قلة تركيزها بسبب الجو الحار.

وسألها بالاسبانية، لاصراره على مخاطبتها بالاسبانية في اثناء الدروس وكانت غالباً ما يفلت منها حبل الحديث فتفقد اعصابها:

«كيف حالك يا خوانيتا؟».

كان جالساً في المقعد المغطى بالجلد وقد اسند ظهره الى الخلف يراقبها منتظراً لحظة ارتكابها خطأ وكانت تعرف ذلك كل المعرفة وتحس بنظره المنصب عليها لا يتركها لحظة وسألها من جديد:

«هل ستتأخرين في الاجابة؟».

وهزت رأسها محاولة ترجمة سؤاله بأكبر سرعة وشرعت تقول بالانكليزية:

«لا تنتظرني اذ كنت...».

لكنه ضرب الطاولة امامه بكف يده محدثاً ضجيجاً مفاجئاً جعلها تقفز من مكانها:

«تكلمي الاسبانية يا خوانيتا. ارجوك».

وصاحت جيني معارضة:

«لكني لا استطيع مجادلتك بالاسبانية».

وعبست عابسة عندما سمعته يضحك. وسألها بصوت هادىء:

«وهل تريدين مجادلتي ايتها الصغيرة؟».

وهزت جيني رأسها ونظرت الى الكتاب امامها. لم تكن تخطت الصفحة الاولى بعد وهي الآن على وشك ان تخوض جدلا معه فقالت له:

«كلا لا اريد مجادلتك».

ورفعت الكتاب تقربه منه ليتسنى له رؤية عدد الصفحات الضئيلة التي قرأتها ثم اضافت:

«لم اتخط الصفحة الثانية بعد واني اعلم انك ستغضب مني ولكن... ولكني لا استطيع العمل اليوم لشدة الحر وفي اي حال فالقراءة تبعث على النعاس».

وتنهد انطونيو عميقاً ثم نهض من وراء مكتبه وتوجه نحو النافذة حيث وقف وأدار ظهره لها ثم مر بيده على مؤخرة رأسه ملتزماً الصمت. كان يرتدي سروالاً بلون الظبية وقد التصق بساقيه الطويلتين والمفتولتي العضلات وهو يقف وقميصه الأبيض المعتاد الذي بدا وكأنه بشرة ثانية له كست ظهره العريض وتراءت من تحتها بشرته الذهبية.

ووجدت جيني نفسها تراقبه بوعي لاهف لم تتعوده وتترقب لا شعورياً ملامحه وحركاته المألوفة. وقد شمخ رأسه متعجرفاً واثقاً فوق العنق القوي ولاحظت كيف كان يمرر اصابع يده اليسرى في مؤخرة شعره الاسود في المكان الكثيف حيث يعقص الشعر فوق ياقة القميص الأبيض وقد سحرها جسمه النحيل القوي والطويل

بنعومته وخطورته وتحركاته الشبيهة بتحركات قط كبير.

«جيني».

قطعت حبل تصوراتها وعادت لتجيه نظرة عينيه السوداوين الثابتة. وابتسم ابتسامة طفيفة وكأنه يعلمها بتفهمه لسهوها. ووقف برهة بجانب النافذة ينظر اليها. ثم قال بصوت لم يحمله مقدار السخط ذاته الذي توقعته:

«لا اظنك قادرة على حفظ اي شيء ما دمت مشغولة البال. ارغب في الذهاب بنزهة الى ستران فهل ترافقينني؟».

ولم تكن الزيارة الى الاسطبل تخلو من المتعة، لكون ستران تقع في اجمل بقاع الريف وسط برودة اشجار ظليلة. ورغم ان جيني لم تكن اكتسبت بعد روح المغامرة فقد باتت اقل خشية من الجياد الاندلسية الحادة الطبع التي يملكها انطونيو ويمتطيها وباتت تتذوق جمالها.

وقالت متسائلة ان كان فعلاً يتوقع ان ترافقه او انه عرض عليها المشروع من باب اللياقة:

«تبدو لي الفكرة عظيمة».

ووضعت الأوراق على الطاولة وكأنها تريد اعطاءه الفرصة لتغيير رأيه ان أراد فقالت:

«ألا يفترض بنا ان نعمل؟».

وظنت للحظة انه لن يجيب عن سؤالها لكنه توقف عن العبوس ورفع حاجبه وعلت ثغره ابتسامة طفيفة وسألها بصوت هادىء:

«هل تعترضين على فكرة إعطائي بعض الوقت للتنزه».

وسارعت في الهز برأسها وقالت مستدركة:

«كلا. بالطبع لا. بل ظننت...».

واتجه نحوها فيما راح صوتها يتلاشى وأحست بخفقات قلبها تتسارع حين وقف امامها وقد لفتها قوة حضوره بحزام من الدفء. وقال لها بصوت تضطرب كلما سمعته فيما حدق فيها بعينيه السوداوين.

«انت شريكتي. ظننت انك عتبت فوافقت على رغبتي في التنزه وقت العمل».

واوضحت له جيني مرادها:

«لم افعل ذلك. بل وافقت على الفكرة».

«آه. نعم».

ومدّ يده ولامس خدّها بخفة بطرف انامله فتسارعت خفقات قلبها واحمرّ خداها وخفضت عينيها متحاشية النظر اليه، وتابع بصوت ناعم:

«انت تحمرّين كلما لامستك يا بماحق».

وانسحبت جيني الى الوراء وأدارت له ظهرها فيما حاولت مقاومة حالات الانفعال التي اثارها وقالت له محاولة الظهور بمظهر الناضج:

«انطونيو لماذا تحاول دائماً ان تجعلني اتصرف وكأني طفلة غبية؟».

لكن صوتها كان لاهثاً وأحست بيديها ترتجفان فقبضت على اصابعها محاولة السيطرة عليها. وردد كلامها وكأنه فوجىء باختيارها للمفردات. «طفلة غبية؟» ثم تنهد من جديد وتأبط ذراعها متوجهاً نحو الباب وقال بصوت رقيق:

«هيا بنا ايتها الصغيرة. قبل ان نغرق في الجدل...».

قاومت ضغط يده لبعض الوقت ونظرت الى وجهه الداكن مدهنة وسألته:

«انت تحب اغضابي اليس كذلك؟ أنت تحاول ان تفقدني اعصابي».

وابتسم معترفاً بصحة قولها فشدّت على راحة يديها بقوة:

«آه يا انطونيو هناك أوقات احس بها اني اكرهك».

وهز رأسه من غير ان يتوقف عن الابتسام وقال لها بكل ثقة:

«كلا يا عزيزتي الصغيرة. انك لا تكرهينني».

كان على حق وهي تدرك ذلك لكنها لم تكن مستعدة للقبول بهذا

الأمر خصوصاً في الوقت الحاضر. وقد كانت تشعر بخليط من العواطف حياله وهي لم تحاول او هي ربما حاولت قليلاً تفهم الاحاسيس هذه وتحليلها. وقد كانت تدهش بعض الأحيان لردّات فعلها العاطفية حياله وتذعر حيناً. كان مختلفاً عن جميع اقربائها ويمتلك قدرة كبيرة على جعلها تضطرب ولم يكن من السهل التخلص منه او تجاهله.

وانذرته قائلة:

«انت سائر على الدرب الصحيح الذي يؤدي بي الى كرهك».

لكنه هز رأسه من جديد. وقد ازعجتها ثقته المتناهية بنفسه لكن يده واصلت مداعبة ذراعها بلطف، فأغمضت عينيها جزئياً للتركيز على الاحاسيس التي ولدتها تلك اللمسة فيما خفق قلبها بسرعة مجنونة.

وقال بسرعة:

«انني لا اصدقك ايتها الطفلة».

وانتزعت جيني يدها من لمسة انامله المداعبة في محاولة اخيرة للتحكم بالموقف وبعواطفها التي خانتها ثم نظرت اليه وقالت لاهثة:

«لن اتزوجك يا انطونيو مهما حاولت اقناعي بأن هذا هو ما اريد».

وحدق فيها بثبات لوقت طويل حتى خفضت عينيها وقد ركز بصره على ثغرها وكأنه سحر به وقال لها بصوت رقيق:

«لا استسلم بسهولة يا جيني. لا بد انك اصبحت تعرفين ذلك فالاستسلام ليس من طبيعتي وقد صممت على الزواج منك ايتها الطفلة المحبوبة».

لم تتمكن جيني من ترجمة عبارة التحبب الاخيرة التي قالها لكنها ارتعشت لرنتها العذب وأحست بشعور غريب يلف معدتها وكأنه ناتج عن خوف او اثارة ولم يكن في وسعها تحديد ايها الصحيح.

وقالت له بصوت يرتجف رغم محاولتها الجاهدة للظهور مظهر

الواثق والعقلاني:

«لا افهم كيف تستطيع الزواج مني من دون موافقتي، الا اذا كنت تنوي جرّي بالقوة، ولا اظن انك مستعد للجوء الى هذه الاساليب».

وتفحصها مطولاً ثم ابتسم ابتسامة اقلقتها ومد اصبعه نحو ثغرها يرسم خطوطه بتأن ثم سألها بصوت هادئ:

«هيا نذهب».

وحدقت فيه جيني لوهلة

«انطونيو».

وقاطعها بلطف:

«طونيو. الن تستعملي ابداً الاسم الذي يناديني به المقربون ايتها الطفلة»

«انطونيو لا . . .».

واحنى رأسه بسرعة وعانقها ثم ابتسم لها وعيناه الداكنتان تلمعان ونفسه الدافئ يداعب ثغرها. وأصر بلطف مشوب بالصراحة قائلاً:

«سابلغ هدفي يا عزيزتي خوانيتا».

وابقت جيني عينيها مطرقتين لبعض الوقت فيما تسارعت الأفكار في ذهنها. ثم رفعت عينيها وجابهت نظرة عينيه السوداوين وقد اقتربتا منها كثيراً فاربكتاها. وقالت بتعقل واضح:

«انطونيو».

وافلتت بسرعة من قبضته قبل ان يتسنى له ادراكها وهرعت في اتجاه الباب.

لقد سرّت للانتصار المتواضع الذي حققته اذ برهنت لذاتها انها لا تزال قادرة على مقاومة قوة اقناعه وهربت منه ضاحكة في اثناء ركضها نحو الباب.

«خوانيتا».

ادركتها مناداته وهي تحاول تحريك قبضة الباب وتتساءل اذا كان

سيلحق بها قبل ان تتمكن من الفرار. وما ان اشرعت الباب حتى حبست انفاسها مصعوقة فقد اصطدمت بدونا صوفيا داخلة الى الغرفة.

وعبرت عينا عمتها الذاكنتان والمشككتان عن ازدرائها للفتيات السيئات التربية. ثم رمقت ابنها الذي كان في اثر جيني وقد قطب حاجبيه لكن بريق عينيه دل على سروره. وقالت بصوتها البارد والمتساوي النبرة بعد ان رمقت جيني:

«طونيو، ماذا يحدث يا عزيزي؟».

ونظر انطونيو الى جيني بعينيه السوداوين ثم هز رأسه ببطء وقال مخاطباً والدته بصوت ناعم:

«لا شيء، يا امي، لا شيء».

وتابعا التكلم بالاسبانية ولم تستطع جيني ان تفهم ما يتبادلان من حديث لكنها التقطت اسماً عرفته لتوها وانتبهت الى النظرة السريعة التي خصّها بها انطونيو عندما تفوهت والدته بلفظة ماريا.

وقفز قلبها في صدرها عندما سمعت الاسم من غير ان تجد سبباً يوجب اضطرابها لورود اسم ماريا غازاريس. هذا اذا كانت هي المعنية. وكان واضحاً من تصرفات دونا صوفيا انها تحضه على القيام بعمل ما لكن جهل جيني للاسبانية حال دون فهمها بقية الحديث. وكل ما فهمته ان ماريا اتت لزيارة دونا صوفيا وقد رأت انه من المستحسن ان يذهب انطونيو ويحييها ما دامت في المنزل. وبدا انطونيو غير مشغوف بالفكرة وهزّ رأسه وقد عبّر انعقاد حاجبيه عن قرب نفاد صبره. وقال موضحاً:

«كنت انوي مرافقة جيني في السيارة الى ستراندا».

تكلم بالانكليزية هذه المرة وقطبت امه حاجبيها ثم نظرت الى جيني نظرة ساخرة جعلت جيني ترتعش لا ارادياً. وأجابته دونا صوفيا مستاءة لاضطرارها استعمال لغة غريبة:

«ليس من باب اللياقة ان تتجاهل ضيفتي وقد طلبت مقابلتك.

ولن تأخذ الكثير من وقتك يا ابني».

ووقف لوهلة مرتبكاً ثم رفع كتفيه وكأنه يستجيب للواقع وأشار على والدته ان تسبقه. وامسك بذراع جيني يقودها في الممرات البيضاء وشرعت جيني تتساءل عن رد فعل انطونيو المحتمل لفكرة مقابلته ماريا غازاريس لو كانت هي الشريكة في مؤسسة فرنسيكو وابنه عوضاً عنها. اقلقتها هذه الفكرة وفضلت الاحجام عن الانسياق فيها وراحت تحاول التنبؤ بهيئة ماريا غازاريس.

كانت قد كونت فكرتها الخاصة عن الفتاة الاسبانية وتصورتها طويلة القامة لا تخلو من التعجرف، رائعة الجمال من دون شك والا لما كان انطونيو ابدى اي اهتمام بها حتى كرفيقة له في ركوب الخيل.

فتح باب البهو لوالدته وانحنى امام جيني مشيراً اليها ان تسبقه الى الغرفة وقد امتلأت عيناه ظنوناً وهو ينظر اليها. وكانت جيني تتمنى لو استطاعت تفادي هذا اللقاء لكن يبدو ان انطونيو قرر انه ما دام عليه مقابلة ماريا فالأمر ينطبق عليها هي ايضاً ولن تجديها محاولة التهرب منه.

دخلت القاعة الكبيرة الباردة الجو وقلبها يخفق بسرعة مجنونة وقد لف معدتها شعور شبيه بالذعر فيما سارت ويداها مقبوضتان امامها. ولاحظت ان المرأة التي نهضت عن مقعدها كانت انيقة ترتدي ثياباً ثمينة، لكن التشابه بينها وبين صورتها في ذهن جيني توقف عند هذا الحد.

فهي من جهة كانت اكبر سناً مما توقعت جيني وقد صدمها ذلك اذ تذكرت ان انطونيو يكبرها باربعة عشر او خمسة عشر عاماً وهو امر اعتادت نسيانه. وكانت شبه متأكدة من ان ماريا غازاريس قد تجاوزت الثلاثين وقد بان تقدمها في السن على ملامحها وكأن نساء اسبانيا يهرمن بسرعة اكبر من نساء البلدان الأخرى.

كانت لبقة ومتكلفة وتنطبق عليها صفة سيدة مجتمع. وشعرت جيني بحداثة سنها واغترابها حين رأتها. وكانت اليد التي صافحتها

بتهذيب، ثابتة وقوية وكأنها يد رجل. ولم يصعب على جيني تخيل ماريا ممتطية جواداً ومسيطرة بسهولة على طباعه الحادة. وانتبهت الى ان عيني ماريا قاسيتان كعيني دونا صوفيا وقد تفحصتاها بفضول ظاهر، ثم التفتت نحو انطونيو ولطف تعبير وجهها حين وقع نظرها على وجهه الوسيم وعينيه الداكنتين وأيقنت جيني ان ماريا غازاريس مغرمة بأنطونيو بغض النظر عما يكنّه لها. ورفعت عينيها لتنظر اليه ثم اومضتا حين رفع يدها الى شفتيه يقبل انامليها. وقالت بصوت ناعم وبالاسبانية:

«طونيو كيف حالك؟».

«دعونا نتكلم الانكليزية اذا كنت لا تمانعين يا ماريا!».

استعمل لهجة تبريرية كان لها وقع عظيم في اذني جيني فاحمرّ خداها.

ووافقت ماريا غازاريس مبتسمة:

«بالطبع. لكني ظننت انك تحاول تعليم ابنة عمك الاسبانية يا طونيو. أليس كذلك يا آنسة فرنسيسكو؟».

وأجابتها جيني:

«انني احاول التعلم».

وتساءلت عما اذا كانت تملك الشجاعة الكافية لتصحيح طريقة لفظ اسمها بالاسبانية لكنها قررت الا تفعل فهزت رأسها وابتسمت ابتسامة حزينة ثم قالت:

«لست بارعة في تعلم اللغات».

وقالت لها ماريا غازاريس بصوت لم يخلُ من نبرة الارشاد:

«لم يكن سهلاً عليّ تعلم الانكليزية. لكن كانت دراستها اجبارية في المدرسة الانكليزية التي كنت فيها فتعلمت».

«أدرست إذن في مدرسة في انكلترا؟».

ونظرت اليها جيني متعجبة وكأنها لم تستطع استيعاب الفكرة ولم تفهم سبب دهشتها لكون هذه المرأة اللبقة والواثقة من نفسها قد

درست في مدرسة في الخارج ولربما في مدرسة من أكثر المدارس الداخلية كلفة وصعوبة في اختيار تلامذتها.

وأجابتها ماريا غازاريس بايجاز:

«لم ابق فيها لفترة طويلة. اذ لم اكن سعيدة هناك وطلبت العودة الى المنزل».

ورمقت عيناها الداكنتان اللامعتان انطونيو وابتسمت نصف ابتسامة، اذ غمزته بزاوية من زوايا ثغرها الواسع، ثم تابعت بصوت رقيق:

«لقد افتقدت الكثير اثناء اقامتي في انكلترا».

وتكلمت بحيث لم تترك اي مجال للشك في قصدها. وتكلم انطونيو مخاطباً اياها وكأنه اساء فهمها اذ قال:

«لا تركب جيني الخيل».

لكن جيني كانت متأكدة انه فهم قصدها تماماً بعد ان لاحظت الطريقة التي تكلم بها.

وارتفع حاجبا ماريا غازاريس السوداوان تعبيراً عن دهشتها واسفها وهزت رأسها.

«آه. لكن ينبغي ان تعلمها ركوب الخيل ايضا يا طونيو. فمن المؤسف الا تستطيع اشراك ابنة عمك في هواياتك المفضلة».

ودلت لحظة التردد هذه على الكثير، وبنحو خاص على ان ماريا غازاريس كانت تعارض مشاريع زواج انطونيو بقلق معارضة دونا صوفيا لها، او بالأحرى معارضة جيني لها. واحست جيني لوهلة انها حليفة الفتاة الاسبانية وهما تسعيان لتحقيق هدف مشترك، اذ في استطاعة ماريا غازاريس ان تقوم بدور الزوجة لانطونيو على نحو افضل بكثير من جيني وكان واضحاً انها متلهفة للزواج منه بينما ترفضه جيني.

«لا اظن انه من الضروري ان اتعلم ركوب الخيل يا آنسة غازاريس».

وكانت متأنية في لفظ اسمها على النحو الصحيح ثم تابعت:
«حتى انه ليس من الضروري فعلا ان اتعلم الاسبانية لكن عمي رفائيل يصر على تعلمي . . . . ».
وأحست ان الطريقة التي رفعت فيها كتفيها للتعبير عن مشيئة القدر لم تكن مختلفة عن حركة اقربائها من ذوي الأصل اللاتيني ولاحظت دهشة انطونيو حين رآها. وقال لها بصوت هادىء:
«لم أدرك انك تدرسين الاسبانية اكراماً لابي. هل هذا هو السبب الوحيد لمتابعتك الدروس؟».
«بالتأكيد».
وسرّت جيني لتغير وجهه عندما نظر اليها ثم ابتسم بتأن وهز رأسه ثم تمتم بصوت خافت بالاسبانية شيئا لم تفهمه، لكن فهمته ماريا غازاريس اذ نظرت اليه نظرة قاسية وساطعة ثم قالت بصوت ناعم:
«يا لبلاهتك يا طونيو».
وتساءلت جيني بعد ان فهمت اخيراً بعض الحديث عن سبب نعت ماريا لأنطونيو بالبلاهة.
ورفع كتفيه ثم ابتسم مجدداً ونهض ثم نظر الى ماريا لبرهة وقال بصوت هادىء:
«أراك غير مستعدة لركوب الخيل اليوم يا ماريا لكن هل لي ان آمل في مقابلتك غداً صباحاً؟».
طرأ تغير جذري على ملامح ماريا القاسية لسماعها دعوته وبدت علامات الرضى على دونا صوفيا ايضا وألقت بنظرة سخرية وانتصار على جيني وكأنها ظنت انها نجحت اخيراً في حمل ابنها على البوح علناً بتفضيله ماريا على جيني. لكن جيني فوجئت بشعورها بالامتعاض للدعوة وعقدت حاجبيها لا ارادياً. وسمعت صوت انطونيو الرقيق والعميق يسأل:
«الا مانع عندك يا صغيرتي؟».

وهزت رأسها وقد تخضّب خداها وبرقت عيناها الخضراوان لحظة التقتا بعينيه وأدركت الدافع الذي حدا بانطونيو الى ابداء الدعوة. وقالت له:
«كلا! بالطبع لا أمانع. ولمَ أمانع؟!».
وابتسم بتأن ثم مد يده يرسم بطرف اصبعه الخط الذي ابرزه عقدها حاجبيها ثم قال لها بنعومة متناهية:
«لا داعي لان تمانعي. لا داعي إبداً».
تمتعت جيني كعادتها بالنزهة في السيارة الى الاصطبل حيث يحتفظ انطونيو بجياده وراحت تنظر حولها بشغف كبير اثناء سيرها على الطرقات المغبّرة والمتعرجة بين كروم العنب وقد شارفت محاصيلها على النضج تحت شمس آب المحرقة.
كان انطونيو قد بدّل ثيابه قبل مغادرتهما المنزل وكانت ترمقه بين الحين والآخر من طرف عينها وتتعجب كحالها دائماً لحسن منظره في سرواله القصير وجزمته وقميصه الأبيض المفتوح كعادته عند الياقة والذي التصق على صدره الواسع. وقد فتح اليوم القميص اكثر من العادة لحرارة الجو وتذكرت جيني كيف رمقها وقد رفع حاجبه لحظة فتح القميص وكأنه توقع منها ان تعارض فعله.
ورحبت جيني بالنسيم الناتج عن سرعة السيارة وكانت تتفهم تماما رغبة انطونيو وارتياحه للهواء يلامس بشرته مباشرة لكن رؤيتها ولّدت فيها احساسات مختلفة تماما لم تخلُ من الاضطراب. كان منظره البدائي والذهبي بسمرته ساحراً جداً خصوصاً عن قرب وحاولت جيني الا تراقب كفيه وذراعيه الاسمرين الجبارين تتحكمان بالسيارة.
وكان رأسه الأسود المتجعد الصغري يحرّك فيها عواطف غريبة وقد زادت حدتها اليوم اكثر من أي وقت مضى وتساءلت عن سبب ذلك. وخيّل اليها انها ترى شخصاً مختلفاً، فهو الآن ليس فقط ابن عمها انطونيو بل اكبر سناً منها يسحرها برجولته. وقد يكون شعور

ماريا غازاويس الظاهر حياله هو الذي جعلها تراه بمنظار آخر لكن مهما يكن السبب فقد احسّت باضطراب عاطفي كبير.

كان لانطونيو شريك في الاسطبل يسكن في منزل قريب منه، يرحب بجيني كلما اتت برفقة انطونيو. اما الاسطبل فهو عبارة عن مجموعة متناثرة من المباني البيضاء في ارض شاسعة.

كانت الأراضي تشتمل مراعي خصبة ترويها مياه الهضاب المجاورة وقد جرّت بواسطة نظام ري قديم العهد انما فعال جداً وكانت تحيط بها حقول اشجار تين ضخمة وقديمة شكلت واحات من الظل!

كانت الجياد من النسل الاندلسي الأصيل ويعود اصلها الى الجياد العربية التي اتى بها الفاتحون العرب وكانت رائعة الجمال. الا انها كانت حادة الطباع ايضا يتطلب ركوبها فارساً ماهراً كأنطونيو وكانت جيني قد تأكدت من مهارته بعد ان شاهدته مرات عدة.

وهي تبقى عادة في رفقة زوجة خوسيه غارسيا. وبعد ان رحّب بها مضيفها دخل المنزل ليعلم زوجته بقدومها وللاستعداد لركوب الخيل برفقة صديقه. وتوقعت جيني ان تسير الاحداث كالعادة.

بعد ان اختار انطونيو مطيته وأسرجها قاد الجواد الى حيث وقفت جيني بجانب سياج حقل الفروسية فنظرت اليها مستغربة. اذ كان يركب عادة جواده وينتظر خوسيه كي يلحق به ويكتفي بالتلويح. لكنه توجه نحوها اليوم وسألها مبتسماً:

«هل تمانعين في بقائك برفقة زوجة خوسيه؟».

وهزت جيني رأسها ورمقته مندهشة ثم قالت:

«كلا. بالطبع لا. ولِمَ امانع؟».

ورفع كتفيه بعد ان فكر للحظة ثم ابتعد ورد قائلاً بصوت هادىء:

«لِمَ تمانعين؟ ظننت انه لربما. . .».

ورفع كتفيه العريضتين من جديد واعتلى السرج. لكنه لم يبتعد

بل جلس لوقت طويل يحدق فيها بعينين غائرتين ثابتتين. ثم ابتسم من جديد ولوّح بيده وقال بصوت ناعم:

«الى اللقاء يا جيني. لن اتأخر».

حثّ الجواد النحيل الشاحب اللون الذي كان يمتطيه على السير رادعاً اياه عن الركض الى ان يتجاوز المراعي، وراحت جيني تراقبه بكآبة. كان من السهل عليها تصور قامة ماريا غازاويس الرشيقة ممتطية الى جانبه وهي تمسك بسير لجام فرس جميل وتسيطر على طبعه الحاد بسهولة. لقد اخبرها انطونيو انهما كانا يركبان الخيل معاً منذ الطفولة. وقد لمحت ماريا نفسها الى ان قدرتها على الفروسية تقربه منها.

وما افاقت جيني الى نفسها الا وهي تناديه باسمه وتوقفت جاهلة ما ستقوله له. احست نفسها بحاجة ماسة الى التكلم معه وان لم يكن لديها ما تقوله بالتحديد لكن تراءت لها الفكرة مجنونة حين رأته يستدير نحوها.

شد بقوة على لجام مطيته ليوقفها فوراً ثم استدار بالجواد نحوها. وراح قلبها يقفز في صدرها وعضت على شفتها بقلق محاولة ايجاد الكلمات للتعبير عن الدافع المفاجىء والفوري الذي حدا بها الى مناداته وسألها بصوت رقيق وهو ينظر اليها وكأنه يدرك دوافعها:

«ما بك ايتها الصغيرة؟».

وأجابته بصوت لاهث وخافت:

«اني آسفة انطونيو. لقد ظننت لتوي انه لربما. . . لربما».

وهزت برأسها متوقعة ان تراه منزعجاً لترددها لكنه ظل ثابتاً فوق جواده وهو يحدق فيها ثم سألها:

«ماذا تحاولين ان تقولي يا جيني؟».

ووجدت الكلمات المناسبة اخيراً فنظرت اليه وقد اعتراها نوع من الدوار فيما قالت له:

«كنت. . . كنت اتساءل هل في استطاعتي. . .».

ورأت نظرة التعجب في عينيه وأدركت انه لم يفهم قصدها فتابعت بسرعة:

«اعني انني كنت اتساءل هل استطيع تعلم ركوب الخيل».

«آه».

وبرقت عيناه فجأة وابتسم نصف ابتسامة ثم قال:

«ترغبين في تعلم ركوب الخيل. أليس كذلك؟».

ادركت جيني ان تهوّرها هو الذي قادها الى التفكير بتعلّم ركوب الخيل اذ كانت تخشى الجياد منذ الصغر. لكن الأوان كان قد فات فلن يدع انطونيو الفكرة تفلت منه بسهولة فقالت محاولة ايجاد مبرر للتراجع:

«لست ادري ان كنت قادرة... لقد كنت دائماً... اعني انني لا اهتم فعلاً بالجياد».

وقال بصوت ناعم:

«سأعلمك يا عزيزتي».

وتراءت لجيني زاوية اخرى للمسألة لم تأخذها في الاعتبار. ماريا غازاريس كانت هي التي طرحت فكرة تعليمه اياها ركوب الخيل لكن ايا منهما لم يقدم عمليا على هذا. وبدأت الشكوك تساور جيني حول المشروع بكامله. وسألته:

«أنت؟».

وأومأ ايجاباً ورمقها ساخراً ثم قال:

«بالطبع أنا. الا تتوقعين مني ان اكون استاذك. ومن احسن مني؟».

وقالت قلقة:

«آه لكن لم افكر. اعني انه لربما...».

وقاطعها وبدا نافد الصبر:

«أوه... ما لي أراك تحاولين تغيير رأيك. لن تفعلي هذا لانني سأعلمك انا؟ وما اعتراضك عليّ؟».

ووقفت جيني على مقربة من الجواد الهائج واحست بقوته ونفاد صبر كل من المطية والفارس وهزت رأسها ثم اعترفت:

«لا أدري».

وضحك فارتعشت. وأنبها بلطف قائلاً:

«لا تتصرفي برعونة اذاً. عزيزتي حوانيتا. لا داعي للخوف».

ونظر اليها وقد رفع حاجباً داكناً وامتلأت عيناه تساؤلاً. فقال:

«هل ركبت جواداً من قبل؟».

وهزت رأسها بالنفي. ثم قالت:

«كلا».

وأدركت للمرة الاولى علو المسافة بين الأرض والسرج.

«يبدو لي الارتفاع عن الأرض شاهقاً».

وابتسم ثم انحنى نحوها ومد يده داعياً اياها بلطف:

«تعالي عتقي بنفسك».

وهزت رأسها ثم قالت بسرعة:

«لا. ليس الآن».

نظرت الى الثوب القصير الذي كانت ترتديه وأضافت:

«لا استطيع الركوب وأنا في هذا الثوب».

لم يسحب يده السمراء واستمر مبتسماً بتحدٍّ في ما راح يراقبها. وأكد لها قائلاً بصوت ناعم:

«لن اؤذيك يا غاليتي. ولا تخافي شيئاً ان جلست امامي. مدّي لي يدك واصعدي. تعالي يا عزيزتي لن ادعك تقعين. اعدك بذلك».

كانت نبرته رقيقة، مغرية وأحست بخفقات قلبها تتسارع متجاوبة. لكنها نظرت الى الجواد الهائج بعينين امتلأتا حذراً وتمنت لو لم تتهور وتزج بنفسها في هذا الموضوع. اذ اتضح لها انه سيؤدي بها الى ابعد مما تصورت. وقالت:

«الجواد... لا اظن انه...».

وامسك بسير اللجام محكماً السيطرة على الجواد الهائج، بسهولة

قريبة من الازدراء وابتسم ثم قال مطمئناً:

«لن يؤذيك «العاصي». تعالي جيني امسكي بيدي».

ومدت يدها مذعنة وأمسكت بيده لكن قلبها كان يخفق بسرعة جنونية وتسارع تنفسها وصاحت خائفة عندما رأت نفسها على صهوة الجواد امام انطونيو وانغرز حد السرج القاسي في ساقيها، وأحاطت بها ذراعه القوية فيما راح الجواد يدور على نفسه للازدياد في الروع وحبست انفاسها من جديد عندما احست بضغط جسم انطونيو النحيل الضاغط على جسمها وسألها بصوت غائر رقيق:

«انت تحبين هذا الموقع المرتفع. أليس كذلك؟».

وأومأت ايجاباً ولم تتردد اذ كان عليها مواجهة مشكلة ركوبها الخيل لأول مرة ومشكلة قربها الحميم من انطونيو ايضاً. ونظرت الى اسفل تقيس ارتفاعها عن سطح الأرض ثم قالت:

«اجل... لكن...».

وسمعت اصداء ضحكته وقد ملأت صدره وأحست بخفقات قلبها تعود الى التسارع. وقال لها:

«اذاً سترافقينا».

وقبل ان يتسنى لها ادراك قصده غمز الجواد بكعب قدمه:

«آه! لا!».

استجاب الجواد لأوامر فارسه. تعلقت جيني بانطونيو وتشبثت اصابعها بقميصه ودفنت وجهها في رحابة صدره الدافئ.

«طونيو. اوقف الجواد. اكاد اقع. ارجوك طونيو اريد النزول».

وسمعت رنين ضحكته في اذنها وقد انطلق الجواد يسابق الريح ثم قال:

«ايتها الطفلة. ايتها الطفلة الخجولة لن يصيبك اي مكروه».

ولم تتجرأ جيني على القاء نظرة حولها وقد طمس القميص صوتها لكنها تنبهت الى عدم خطورة رحلتها وقد كان يعدو بها الجواد في المروج الفسيحة والريح تعبث بشعرها الأحمر.

احست جيني بشعور غريب من الاثارة لسرعة الجواد وقوته وتشجعت فألقت نظرة خاطفة على الاشجار التي بدت وكأنها تتسابق، فأدركت سرعة انطلاقهما وهتفت:

«طونيو. ارجوك يا طونيو ان تتمهل».

وسمعت من جديد رنين ضحكته في اذنها وضمتها ذراعه اكثر فأكثر الى صدره الى ان ملأ صدى ضحكته جسمها وقال بصوت فاض رضى:

«آه. اخيراً ناديتني باسمي. انت تتعلمين اساليب ارضائي يا حبيبتي».

ولم تدرك جيني ما قاله لكنها رفعت اخيراً رأسها ونظرت الى عينيه السوداوين وقد امتلأتا تحدياً. وابتسم لها بوجهه الصارم الصقري ثم ضحك ساخراً واحست بالسعادة تفيض من كل انحاء جسمها. الريح الناتج عن عدو الجواد بعثر شعرها وأنعش خديها فتطايرت خصلاته الى الوراء ولمعت عيناها من الاثارة. والتقى نظر انطونيو بعينيها فضحك فيما برقت عيناه الذاكيتان.

ظنت انها خائفة وأرادت الظهور بمظهر الغاضبة لكنها ادركت ان كل شيء تلاشى الآن ولم يبق سوى ذلك الشعور الجامح بالاثارة الذي ولدته الرحلة المجنونة، ولفت ذراعيها حوله تعانقه فيما وجهها على صدره الدافئ والرحب واغمضت عينيها.

خيّل اليها ان الرحلة استغرقت دهراً وان الجواد لن يتعب ابداً وفوجئت به يمهل سيره وكادت الا تشعر بالمجهود العقلي الذي كبح جماحه. وادركت انهما بلغا حدود ارض حوسيه غارسيا حيث علت اشجار اوكاليبتس ظليلة بجانب الطريق ورأت كروم العنب على مسافة قصيرة فوق التلال.

ونظرت الى انطونيو واحست فجأة بخجل عظيم بعد ان توارى شعور الاثارة الأولى وأتيح لها ان تدرك بسهولة استسلامها العفوي لأحداث الحاضر. وحدّق فيها انطونيو بثبات حتى خفضت عينيها

فعلقتا على ياقة قميصه المفتوحة فتفادت بذلك مواجهة نظرته البراقة الاستجوابية مدة اطول وقد تسارعت خفقات قلبها.

ومد يده ويعثر شعرها الاحمر بلطف وازاحه عن جبينها ثم ابتسم وهو يلامس بشرة عنقها الناعمة. وسألها بصوت ناعم:

«هل وجدت اخيراً السبيل لارضائك ايتها الصغيرة؟!».

وارتعشت جيني انما لا ارادياً. ولما لم تجب رفع ذقنها بيد ثابتة وأرغمها على النظر اليه وقال:

«لا تستطيعين الانكار انك تمتعت بالرحلة».

كانت قد تمتعت فعلاً وكانت على وشك الاعتراف له بذلك لولا رؤيتها في هذه اللحظة خوسيه غارسيا يقترب منها وادركت للمرة الاولى ما قد يفكر فيه اسباني تقليدي حين يراهما في هذا الوضع. وكان انطونيو يعي ايضا هذا الاحتمال لكنها رأته يبتسم وكأنه غير راض عن ظهور صديقه المبكر.

وتوجه خوسيه غارسيا بجواده نحوهما وقد علت ثغره ابتسامة مؤدبة لم تخل من الفضول وقال مخاطباً جيني:

«لم اجدك قرب المرج يا آنسة فرنسيس. ولم ادرك انك...».

وعبّر عن قصده بحركة واسعة من ذراعيه ملاحظاً ثوبها القصير الزهري اللون والبعيد كل البعد عن ثياب الفروسية وتراءى لجيني انه صدم لرؤيتها ملتصقة بانطونيو. ولم تدرك الا بعد دقائق عدة انه اعتاد رؤية انطونيو في رفقة ماريا غازاريس. وان زواج هذه الاخيرة من انطونيو الذي كانت ترغب فيه دونا صوفيا بات امرا واقعاً مما يزيد في غرابة المشهد الذي واجهه.

وكان انطونيو يبتسم لكنه كان واضحاً انه ادرك نظرات صديقه المتسائلة بسهولة وقال له:

«شاءت جيني ان اعلمها ركوب الخيل».

ثم نظر اليها بعينين براقتين وتابع:

«وهذا ما يسمى بالانكليزية «رحلة تجريبية». أليس كذلك ايتها

الطفلة؟».

ورفع خوسيه غارسيا كتفيه بلباقة وقال بصوت هادئ:

«انه لأسلوب تعليمي غير معهود يا صديقي طونيو لكن...».

واكمل جملته بحركة من كتفيه بدت وكأنها تضمنت رأيه في الموضوع وقال له انطونيو:

«وهو اسلوب مسموح به في هذه الظروف».

وضيقت ذراعه القوية التفافها حول جيني حتى صعب عليها التنفس ثم أضاف:

«اذ ان جيني ستصبح زوجتي يا خوسيه».

«انطونيو!»

طردت صيحة احتجاجها هذه تعابير السرور عن وجه خوسيه والتفتت تنظر الى انطونيو بعينين غاضبتين فيما حاولت يداها عبثاً الافلات من قبضته الفولاذية:

«لا حق لك بان...».

وتوجه انطونيو بالكلام الى صديقه المرتبك وهو يحدق فيها:

«هل سمعتها؟ وهل كنت وافقت على مرافقتي في هذه الحالة لو لم يكن ذلك صحيحاً. ايتها الصغيرة؟».

ونظر الى ساقيها النحيلتين وقد ظهرتا من تحت الفستان الزهري القصير والى يده السمراء الضخمة وقد ضمت خصرها ثم مرر اصبعه يرسم خطوط جسمها اللطيفة وأضاف:

«وهل يمكن ان تقوم فتاة حسنة التنشئة بعمل مماثل يا عزيزتي؟».

ثم احنى رأسه الداكن في اتجاهها للحظة وهمس في اذنها:

«مصلحتك تقضي الا تجادليني بشدة يا جيني؟».

واستدارت جيني بقدر ما سمحت لها قبضته وحدقت فيه بعينين خضراوين فاض الغضب منهما وهمست لاهثة:

«انني اكرهك. لن اتزوجك حتى ولو انقطع الرجال عن الأرض».

وأدركت ان خوسيه غارسيا كان يراقبها بفضول وقد اربكه تبادل العواطف اللاهبة بينها لكن انطونيو بدا وكأنه غير مبال بمراقبة صديقه وأحنى رأسه تجاهها وعانقها لوقت طويل ثم ابتسم مجدداً وقال لها بصوت رقيق:

«ستتزوج يا صغيرتي. ستتزوج».

٦- النسر صيّاد النسور

افاقت جيني في صباح اليوم التالي باكراً على غير عادتها وبقيت مستلقية في السرير الواسع والمريح لبعض الوقت تفكر في احداث الأمس. وقد كانت كثيرة كلفائها ماريا غازاريس، وأكثر اهمية تلك الرحلة المجنونة على متن الجواد برفقة انطونيو التي انتهت باعلانه نيته الزواج منها امام خوسيه غارسيا.

وأدركت ان خوسيه غارسيا انتهى الى تصديق انطونيو واعتبار نفيها ذلك من باب التحفظ الذي تقدم عليه فتاة على وشك الزواج مما أثار غضبها فاعتصمت بصمت صارم بقية النهار وقد لاحظ عمها ودونا صوفيا صمتها هذا.

صعب عليها قبول كونها تمتعت بالرحلة المجنونة برفقته بعد ان أثار غضبها على هذا النحو. وشعرت ان عليها معاودة التفكير في قرارها بتعلم ركوب الخيل لكون الفكرة مشوبة بالمحاذير واولها انه يقتضيها تمضية المزيد من الوقت برفقة انطونيو. وقد كانت مؤخراً اقل رغبة في مرافقته.

ولم تكن ماريا غازاريس تماماً كما توقعتها برغم اناقتها وتكلفها الأكيدين لكنها أدركت انها قد تتحول الى خصم عنيد اذا شاءت الصدف ان تواجها. وأحست ان انطونيو كان يحاول جاهداً ان يبقي الواحدة منها بعيدة عن الأخرى. وقد اغضبها ذلك.

وتذكرت فجأة انه ذهب برفقة ماريا هذا الصباح بالذات لركوب

الخيل وقطّبت حاجبيها. وخيّل اليها انه لو كان فعلاً مصمماً على الزواج منها لتخلى عن ركوب الخيل برفقة ماريا الا اذا كان يحاول اثارة غيرتها. واقتنعت بأنه سيخيب امله اذا كان هذا قصده لكن من المرجح انه كان يتصرف من موقع الذي يحاول رمي عصفورين بحجر واحد كما اخبرها سابقاً.

وتنهدت بعمق لاضطراب حالتها العاطفية ثم تثاءبت بكسل واخيراً نهضت من السرير وارتدت ثوباً خفيفاً. كان الجو مشمساً ودافئاً كالعادة وابتسمت حين تنشقت العطور التي فاحت من الباحة ومن الورود على شرفة غرفتها.

مشت نحو احدى النوافذ ووقفت كعادتها في اطار النافذة الدائري تنظر الى الخارج وقد احاطت بها شلالات من الورود وازهار المانوليا وراحت تنعم بالسكون الهادىء والدافىء.

لامست وردة حمراء قانية خدّها فالتفتت ووجدت يدها تداعب تويجاتها المخملية الباردة وابتسمت. داعب اريج الوردة انفها فقطعت عنقها وقربتها من انفها فتنشقت عبيرها بغبطة ثم استدارت عائدة الى الغرفة.

«جيني».

ترددت برهة وخفق قلبها فجأة بعنف فاصيبت بدوار وتعرفت بسهولة الى الصوت وتكهنت انه خرج لملاقاة ماريا غازاريس كما وعدها في الأمس.

وفكرت بادىء الأمر في تجاهل ندائه والاكتفاء بالدخول الى غرفتها والاستحمام ثم الاستعداد للفطور. لكن قلبها دلّها الى انه لا يزال واقفاً في الباحة ينتظرها فترددت لبعض الوقت ثم استدارت من جديد.

وقف انطونيو في ظل شجيرة مانوليا فاح عبيرها. وتراءى لها كعادته في هذا الموضع بالذات وكأنه مزيج من الحسن والخيال. وكان يرتدي كما توقعت ملابس الفروسية وينتعل جزمته واقفاً فارجاً ساقيه

بعض الشيء يضرب احداها بمهماز الركوب القصير. وابتسم حين اطلت من جديد وكأنه متأكد من انها ستعود مستجيبة لندائه وقد لمعت عيناه السوداوان فرحاً. حيّاها بصوت رقيق:

«صباح الخير».

ولامست نظراته ثوبها الفاتح اللون وشعرها الأحمر المبعثر وهز رأسه علامة انشراحه لرؤيتها:

«ألم ترتدي ثيابك بعد يا حبيبتي؟».

وهزت جيني رأسها فيما راحت تفرك الوردة الحمراء بين اصابعها محاولة إخفاء ارتجاف يديها وعلى رغم احساسها بسخافة غيرتها شعرت في هذه اللحظة بالذات وانطونيو واقف هناك بأنها تكره فكرة مرافقته لماريا غازاريس لركوب الخيل وقالت له في اقتضاب:

«أرى انك افقت باكراً لملاقاة الآنسة غازاريس».

ولاحظت حاجبيه الداكنين يرتفع بسرعة. وسألها بصوت رقيق على رغم المسافة التي بينهما

«وهل انت مستاءة من ذلك؟».

وفهمت قصده المبيت في السؤال فاغتاظت وشددت قبضتها على الوردة. فانقطع رأسها ورمته بحركة غاضبة. ثم أكدت له:

«طبعاً لا، لا أبالي بمن يرافقك يا انطونيو وانني متأكدة من ان الآنسة غازاريس تسر لمرافقتك اكثر مني».

ولاحظت انه توارى لحظة تحت الشرفة وقطبت حاجبيها فضولاً ثم ظهر مجدداً ممسكاً بشيء بين يديه. وابتسم لها ابتسامة لم تخل من المكر ثم مد يديه في اتجاهها ليتسنى لها رؤية الوردة الحمراء التي رمتها وقد امسكها بأصابعه السمر القوية بمنتهى الرفق. رفعها الى ثغره ولامست شفتاه التويجات العابقة عطراً ثم وضعها بدقة في جيب قميصه. وذكرها بصوت رقيق قائلاً:

«انها الوردة الحمراء. وسأحتفظ بها الى جانب قلبي يا حبيبتي».

وتأثرت جيني لقيامه بهذا العمل التقليدي المحبب لكنها كانت

مصممة على الا تجد فيه سوى خطة لاقناعها وهزت رأسها وأومضت عيناها عزماً ورغبة في ايذائه وقالت محاولة تحجيم الحدث قدر المستطاع:

«لم اكترث في حياتي لعمل تخطاه الزمن كهذا. ولم يعد احد يحمله على محمل الجد. ولم اعطك الوردة بل قذفتك بها».

وأدركت انها تمكنت من جرح شعوره حين لاحظت انقباض فكيه وبريق عينيه السوداوين القاسي، وراح قلبها يخفق بسرعة جنونية. اجابها بصوت بارد اخافها لكثرة هدوئه.

«لو لم تكن اللياقة وحسن الاخلاق يمنعاني من الصعود الى غرفتك لكنت جعلتك تأسفين لكلامك. اما الآن... فلن احييك فلنفترقا حين أعود من نزهتي».

«قد لا تجدني».

انطلق جوابها بصورة عفوية وبدافع التحدي لكنه التفت نحوها من جديد وقد فاضت الدهشة من وجهه وردد قائلاً:

«الن اجدك؟».

وأومأت ايجاباً.

اربكها رد فعله وأدهشها في آن ولم تدرك السبب. وحدقت فيها عيناه السوداوان طويلاً بنظرة غائرة لا قرار لها اطلقت العنان لخفقات قلبها من دون ان تفهم سبب اضطرابها. وقالت:

«لربما قررت الذهاب في نزهة».

وحدقت فيه مشدوهة عندما سمعته يتنهد ارتياحاً ورأته يغمض عينيه وكأنه تخلص لتوه من عبء ثقيل.

خاطبها مستعملاً اللقب الذي يفضله لها:

«يا ايتها الحمقاء. لقد اردت اعطائي انطباعاً خاطئاً».

ولم تحتج على تسميتها «حمقاء» اذ كانت قد تحولت الكلمة بينهما الى مجرد لقب لا تعارضه. لكنها حاولت تفهم مئات الأفكار التي جالت في ذهنها وتساءلت عما قد يفعله انطونيو لو كانت تنوي مغادرة المنزل.

ثم رمقته بطرف عينها للحظة. وتفحصت ملامحه الصقرية الداكنة وجسمه الطويل النحيل والقوي وكأنه مستعد حتى في هذه اللحظة للانقضاض... وكانت لا تزال مصممة على مقاومة محاولات اقناعها بالزواج منه واذا بها تتساءل ان كانت فعلاً قادرة على السفر الآن. وقد تعودت على الكثير من الأمور في اسبانيا ستفتقدها اذا قررت الرحيل. ومن اهم تلك الأمور جهود انطونيو المثابرة لاقناعها بالزواج.

وهزت رأسها وكأنها تحاول تنقيته وتفادت النظر اليه ثم قالت:

«من الأفضل ان اباشر ارتداء ثيابي والا تأخرت عن الفطور».

واستمر انطونيو واقفاً ينظر اليها ويضرب جزمته بالمهماز القصير وواصل عليها قائلاً بلطف:

«بامكانك مرافقتي».

ولم تحاول جيني تفهم اسباب دعوته لها هذه بل اكتفت بسبب واحد منها اعتبرته مناسباً وهزت رأسها تقول:

«حتى يتسنى للك رؤيتنا مصطحبين بحصان واحد».

ورأت الغضب يجتاح ملامح وجهه واستطردت

«لا، شكراً يا انطونيو. لا أظن ان الآنسة غاريس مستعدة لرؤيتي او اني سأسر لرؤيتها».

«آه!».

دوت صيحته كالقنبلة وأدركت انه فهم اخيراً مسألة كانت غير واضحة في ذهنه ثم اكمل بصوت رقيق:

«اذن. أنت مستاءة من ركوبي الخيل برفقة ماريا».

ووضع الوردة الحمراء في جيبه برفق ثم تابع قائلاً:

«فهمت الآن طبيعة احساسك تحوي على حقيقتها يا حبيبتي؟!».

«أنت... أنت لا تفهم شيئاً». قالت جيني لاهثة ثم اضافت:

«ليس هناك شيء يحتاج للفهم. لاسيما ما يجول في ذهنك».

وضحكت عيناه وكأنه سرّ لغضبها وسألها برقة:

«وماذا يجول في ذهني يا حبيبتي؟».

وراحت جيني تعبث بأصابعها بثوبها محاولة ايجاد الكلمات للرد عليه ثم ضربت بقدمها ارض الشرفة الحجرية الباردة ضربة آلمتها وصاحت به غاضبة:

«آه.. اذهب وقابل ماريا. اذهب واركب الخيل برفقتها لكن اياك ان تظن انك قادر على اثارة غيرتي حتى اقبل بالزواج منك. لانك لن تنجح في ذلك ابداً».

أيقنت جيني ان عمها اشتبه بحدوث تأزم في علاقتها مع انطونيو في اليومين الماضيين فلم تفاجأ عندما لحق بها الى الحديقة ذات مساء بعد العشاء.

ولم تكن تكيّفت تماماً بعد مع وقت العشاء المتأخر جداً وهو الوقت التقليدي في كثير من المنازل الاسبانية وكانت تستمتع دائماً بتلك السهرات الهادئة خصوصاً متى كان القمر بدراً. وجلست لبضع دقائق على حافة حوض البركة الحجري رغم ضيق المكان لوفرة ازهار الخبّازى الحمراء والورود الحمراء والبيضاء والصفراء التي تسلقته وراحت تستمع الى خرير المياه من النافورة المزخرفة.

اختفت الألوان الا عن بعض البقع التي يصلها النور الآتي من اضواء المنزل، لكن اريج الزهور لم يخف بل عبق به الجو الدافىء والساكن. مضى على جلوس جيني بعض الوقت تداعب المياه بأناملها حين وصل عمها. واتجه نحوها قائلاً:

«جيني يا طفلتي. هل انت جالسة هنا لأنك حزينة؟».

وهزت برأسها تطمئنه باسمة:

«كلا يا عمي رفائيل بل جلست هنا استمتع بالأمسية الرائعة وبجمال المكان هذا في ضوء القمر...».

ثم ضحكت برقة فيما نظرت الى الكرة الصفراء المعلقة في السماء الداكنة:

«انني متأكدة من ان قمركم اضخم بكثير من القمر في بلادنا».

وبدا وكأنه استوحى معنى جملتها الاخيرة فوقف ينظر اليها وقد قطّب حاجبيه وكأن شيئاً ما اربكه ثم سألها:

«هل تحنين للعودة الى وطنك يا جيني؟».

وهزت رأسها من جديد:

«كلا. لا احس بالحنين الى وطني».

ومدت يدها وأمسكت احدى يديه وابتسمت له:

«انني حقاً سعيدة هنا يا عمي رفائيل. اؤكد لك هذا ولا داعي لان تشغل بالك».

وابتسم رفائيل ببعض المرارة ووضع يداً لطيفة على رأسها ونظر اليها بعينين وادعتين كعيني جدها وكأنه لم يصدق بعد تطميناتها ثم قال بصوته اللطيف العذب:

«اشعر الآن انك ابني ابنتها الطفلة. وانا مسؤول عن سعادتك قدر مسؤوليتي عن صحتك».

واجابته جيني بصوت رقيق:

«اعرف ذلك يا عمي وانا شاكرة لك».

وامسك بيدها بين اصابعه وتردد وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة للتعبير عن امر تكهنت جيني انها عرفت سلفاً مضمونه وتابع بعد صمت طويل قائلاً:

«في الفترة الأخيرة راودني شعور انك وطونيو...».

وهز رأسه ببطء فنهضت جيني وهزت رأسها بدورها ويدها بين يديه وقالت بصوت ارادته هادئاً وثابتاً:

«ليس هناك أشياء كثيرة تجمع بيني وبين طونيو يا عمي رفائيل فهو...».

وترددت متسائلة حول صحة الحجة التي هي في صدد ابدائها لكنها تابعت:

«فهو يكبرني بخمس عشرة سنة».

واستوقفها رفائيل قائلاً برفق:

«لكن يا ابنتي أليس هذا الأمر مستحسناً؟ الا يشكّل الرجل الاكبر سناً من زوجته زوجاً صالحاً اكثر من غيره؟».

وقاطعته جيني رافضة:

«لا يشكل زوجاً صالحاً الا اذا خلا قلبه من طموحات جشعة».

وتمنت جيني لو لم تحس بهذا المقدار من المرارة حيال هذا الوضع واضافت:

«وهو عدا ذلك يكن المودة للآنسة غازاريس وهي تبادله عاطفته».

«وأنت يا صغيرة. الا تكنين المودة له ولو قليلاً؟».

وبالغت في الانتظار قبل الاجابة لكنها شعرت بالحاجة الى اختيار كلماتها بدقة.

«طبعاً نعم. فهو ابن عمي».

وشددت اصابعه اللطيفة على قبضتها بعض الشيء وسألها:

«هل لأنه ابن عمك فقط؟».

«نعم. لأنه ابن عمي لا لشيء آخر».

وتنهد رفائيل كما كان تنهد انطونيو من يومين حين اعتقد انها راحلة. وأسفت جيني لتخييبها امل عمها لكنها كانت لا تستطيع الموافقة على مشاريع انطونيو الأنانية حتى ولو اكراماً لعمها. وقال لها رفائيل بصوت عادي:

«اخبرني خوسيه غارسيا ان انطونيو اخبره عن خطبتكما».

وصعقت جيني لمعرفته الأمر اذ ادركت للمرة الاولى الابعاد التي اكتسبها إخبار انطونيو صديقه الحميم عن زواجه منها. ولربما لم ير خوسيه غارسيا اي دافع لكتم الخبر وقد تكون نصف البلاد قد علمت بالأمر الآن بغض النظر عن مقدار الحقيقة فيه.

من الصعب التنصل من اعلان كهذا امام قوم تقليديين كالاسبان ولا بد ان انطونيو كان عارفاً بذلك اكثر منها، ولربما اخبر خوسيه غارسيا بدافع تعقيد الامور في وجهها ليجعل رفضها الزواج منه

مسألة مستحيلة. وأحست بشعور غريب يلفها حين لمست تصميمه.

وقالت فجأة وهي تحاول ان تبل شفتيها الجافتين:

«لم يكن له الحق ان يخبر ايا كان. لقد أثار سخطي بعمله هذا. وقد اخبرت السيد غارسيا بأن الخبر عار من الصحة وظننت انه صدقني».

«ظن خوسيه ان تكذيبك للخبر كان يداعي التحفظ على الاسلوب غير الرسمي الذي اعتمده انطونيو في اعلان خبر زفافكما».

وشدّ من جديد على اصابعها:

«هل أنت مضطرة الى تكذيب انطونيو بهذه الشدة. طونيو متلهف للزواج منك ولقد لاحظت مؤخراً...».

وتردد بين التكلم والسكوت ثم قال بسرعة:

«بدا لي انطونيو مؤخراً وكأنه ليس مهتماً بتحقيق مشيئة جده بقدر اهتمامه بتلبية نداء قلبه. واني اعني بصدق ما اقول ايتها الطفلة».

وراح قلب جيني يخفق بسرعة جنونية وادركت ان عمها تنبه لهذا الأمر اذ ان يدها كانت لا تزال بين يديه. كم هو سهل عليها ان تصدقه وان تترك نفسها تنجرف في الاعتقاد ان انطونيو مصر على الزواج منها لأنه يحبها. لكنها هزت رأسها بشدة للتملص من الفكرة. فهو ذهب لركوب الخيل برفقة ماريا غازاريس ولم يكتم امر استمتاعه برفقتها وان بدا مستعداً الآن يضحي بحبها العميق له من اجل الحصول على حصة اكبر في المؤسسة العائلية. فالرجال امثال انطونيو قساة جداً ولا بد ان ماريا غازاريس مؤهلة اكثر للتعامل معهم.

«لا اصدق... لا استطيع تصديق ذلك يا عمي رفائيل».

قالت محاولة تخفيف حدة الكلمات لئلا تجرح شعوره. وايقنت انه اكثر قابلية للأذى متى تعلق الأمر بابنه انطونيو وقالت:

«انطونيو لن يلبي نداء قلبه. لأنه لو فعل لتزوج من الآنسة

غازاريس».

«جيني ايتها الطفلة ارجوك».

«لا جدوى يا عمي».

وهزت رأسها بحزم ثم نظرت اليه مطولاً وبحزن راجية لو استطاعت تصديق كلامه اذ بدأت تدرك في قرارة نفسها مدى رغبتها في تصديقه. وبعد قليل ابتسمت بمرارة ومدت يدها تلامس وجهه بلطف وقالت بصوت رقيق:

«اني آسفة. اتمنى لو استطعت تصديقك يا عمي ولو اكراماً لك فقط ولكن. . .».

قاطعها قائلاً:

«ولكن لن تتزوجي الا بدافع الحب».

وتنهد. . . هزت جيني رأسها ونظرت الى ايديها المتشابكة واحست بتعاسة فاقت توقعاتها ورددت بصوت ناعم:

«نعم سأتزوج بدافع الحب فقط. وينبغي ان يكون الامر متبادلاً».

ثم استبقت سؤاله عن قصدها بابتسامة عريضة وقالت له بحدة:

«لربما اسكرني تأثير القمر الاسباني هذا. من المستحسن ان ادخل الى المنزل قبل ان افقد صوابي».

لم تحبذ جيني يوماً في حياتها انواع الرياضة التي تتضمن اهداراً للدماء ولم تستهوها ابداً مصارعة الثيران لكن حين عرض عليها انطونيو ذات يوم مرافقته الى حفلة صيد النسور لم ترفض فوراً بل نظرت اليه بفضول متسائلة هل هو جاد.

واوضح لها قائلاً اثناء تناولهم الغداء:

«ظنّ خوسيه انك لربما وددت مرافقتنا».

وعبرت عيناه السوداوان عن تحديها المعهود فيما راح يسكب مزيداً من الشراب في كوبه.

«الى صيد النسور؟ لكني لم أكن على علم انك تصطادها. اعني اني لم اسمع من قبل بصيد النسور».

ورفع كتفيه غير مبالٍ وبانت بسمته من خلال الكأس فيما راح يرتشف منها ثم سألها:

«لم تأت الى الاندلس من قبل أليس كذلك؟ لقد اخبرت خوسيه انك لا تحبين رؤية الدم لكنه اصر على دعوتك واني احبذ فكرة قدومك لذا. . .».

وفتح يديه تاركاً المبادرة لها.

واحمرّ وجه جيني للتهكم الذي ابداه حيال كرهها للصيد وانتبهت لشفتي دونا صوفيا الرفيعتين تعبيراً عن ازدرائها لحساسيتها المفرطة واعترضت جيني قائلة:

«لا احب مشاهدة الحيوانات تقتل بداعي الرياضة. لعلك تشكر السيد غارسيا عني وتفهمه حقيقة شعوري».

واصرّ انطونيو وقال وهو يحدّق فيها:

«حاولت افهامه ولكن».

ورفع كتفيه العريضتين وكأنه يشارك صديقه استهجانه ثم تابع:

«يصعب احياناً على الاسبان تفهّم مواقف الانكليز».

واجابته جيني بحدة:

«يمكنني تصديق هذا. حتى الانكليز انفسهم لا يفهمونها».

ولم تتنبه الى مضمون ملاحظتها الساخر الا حين سمعت ضحكته العميقة والهادئة وابتسمت عفوياً. وقد احست فجأة بقربها منه وقد استغربت هذا الشعور ولم تفهمه لكنها شاركته في الضحك. الا ان دونا صوفيا استاءت من هذه اللحظة الحميمة بينهما وحدقت بشراسة في عينيها وقد ضاقت عيناها غضباً ثم قالت مخاطبة ابنها بصوت عادي:

«ستذهب ماريا بكل تأكيد».

واحست جيني بلسعة الامتعاض لسماعها اسم ماريا غازاريس

بيد انها ايقنت ان دونا صوفيا تعمدت ذكر اسمها لتذكيرها هي وانطونيو بكثرة الأمور المشتركة بينهما وندرتها بينه وبين جيني.

لم يجب انطونيو مباشرة بل رمق جيني التي جلست تنظر الى اسفل وكأنها تعير كل اهتمامها قطعة الكعكة في صحنها ثم قال اخيراً:

«اتوقع ان تحضر ماريا برفقة والدها يا امي».

ورفعت جيني عينيها ونظرت اليه، ثم قالت:

«اذاً من الأفضل الا اذهب».

وناداها انطونيو بصوت رقيق:

«ايتها الحمقاء الصغيرة. ألن تأتي اكراماً لي يا جيني؟».

وتفادت النظر اليه لكنها هزّت راسها. كانت تخشى مقابلة ماريا قازاريس من جديد خصوصاً اذا كان اللقاء سيتم في ظروف لم تعهدها جيني فيها ماريا معتادة عليها وقالت:

«أفضل عدم الذهاب يا انطونيو».

«جيني».

مد يده نحوها وغطت انامله السمراء القوية يديها وراح قلبها يخفق بسرعة جنونية حتى في اثناء هزها رأسها. وسألها بصوت رقيق:

«ألن تلبي الدعوة ولو اكراماً لي؟ سيستغرب خوسيه عدم مرافقتك لي وانا سأسر كثيراً اذا جئت».

ونظرت اليه جيني في محاولة اخيرة لمقاومة اسلوبه المقنع اللطيف. وسألته بسرعة لاهثة:

«حتى يتسنى لك رمي عصفورين بحجر واحد... لقد سبق أن اخبرتني ان هذا هو ما تريده».

وتحولت انامله فجأة الى قبضة فولاذية تسحق يدها حتى صرخت لألمها وبرقت عيناه السوداوان غضباً وتقلص فمه حتى تحول الى خط رفيع قاس وسط ملامحه الصقرية.

«تباً لك».

ولم تره في حياتها غاضباً غضبه الآن وأحست بالذعر لعدم قدرتها

على تحريك يدها وتمتم:

«حسناً لن احتمل المزيد من نوباتك الغاضبة يا ايتها الحمقاء، بوسعك ان تفعلي ما تشائين وان تذهبي الى حيث ترغبين ولن اضايقك بعد الآن ابداً. لقد انتهى الأمر بيننا».

أفلت يدها بحركة غاضبة عنيفة ونهض عن كرسيه لكن رفائيل مد يده واستوقفه راجياً:

«طونيو ارجوك ان تتحلى بالصبر يا بني».

ووقف انطونيو ونظر الى جيني متجاهلاً والده وأحست بلهيب عينيه السوداوين يحرقها فنظرت اليه لاارادياً. وقد اتسعت عيناها تتوسلانه. وخيّم الصمت للحظة وكأن الطير فوق رؤوسهم.

عبرت عينا دونا صوفيا الداكنتان عن رضاها لنبذ ابنها لجيني علناً امام رفائيل الذي احتفظ بيده على ذراع انطونيو الساخط وجيني التي جلست ساكنة وعينا انطونيو تحدقان فيها وقلبها يخفق بسرعة مجنونة وموجات الذعر تجتاحها كلما نظرت اليه وقد اشرف عليها وكأنه من الطيور المفترسة الخطيرة.

ولمست فيه حالة من الالحاح والشغف ألهبت احاسيسها وبدا في لحظات الصمت هذه وكأن كل شيء متعلق بها. وأدركت ان انقطاع العلاقات بينها وبين انطونيو سيحزن عمها كثيراً وستكون دونا صوفيا هي الوحيدة التي ستسر لذلك. وبللت جيني شفتيها وهي تحاول جهدها ان تقاوم تحدي عينيه السوداوين ثم سمعت نفسها تقول له بصوت خافت ورقيق:

«انني آسفة يا انطونيو».

«ماذا اذاً؟».

تكلم بصوت رقيق ايضاً حتى خيّل اليها للحظة انها وحيدان على الأرض. ثم اضاف بالاسبانية:

«وما العمل الآن يا عزيزتي؟».

وعضّت على شفتها قلقاً. لم تقصد اثارة سخطه بهذا الشكل لكنها

لم تكن مستعدة لأن تذلّ ايضا ولم تدر ما العمل. فالقرار يعود اليه. كانت قد اعتذرت له ولم تر سبباً لتتابع رفع غصن الزيتون اذا لم يبدِ عنه بعض اللين. فاكتفت بالجلوس صامتة وشبكت يديها على الطاولة امامها.

«جيني؟».

رفعت عينيها للحظة ثم خفضتهما بسرعة فمدّ يده ورفع ذقنها وسألها متنهداً:

«انت لا ترحبين الّي بي، أليس كذلك؟».

ودوى صوت دونا صوفيا البارد والقاسي:

«طونيو، طونيو لا تحاول. . .».

لكنه قاطعها قائلاً:

«امي، استطيع اتخاذ القرارات وحدي. شكراً لك».

ثم نظر الى جيني من جديد وسألها:

«هل افهم منك انك قررت مرافقتي الى ستران؟».

ووجدت نفسها تومىء ايجاباً لاشعورياً:

«حسناً».

قالتها بصوت رقيق وخفّت حدة نظرته القاسية حين ابتسم راضياً.

٧- جراح المطاردة

وجمت جيني حين اكتشفت ان موعد رحلة الصيد قد حدد قبيل الغروب. وبسبب ذلك كما اوضحه لها انطونيو ان الغسق والفجر هما الوقتان الوحيدان حين تتداخل نشاطات الطيور المفترسة والحيوانات النهارية. لم تكن راضية قط عن المشروع برمته، لكنها كانت مرتابة للقائها تماريا انجازا ايجابيا جديدا اكثر من اهتمامها بمصير الطيور ولم تتعجب حين علمت ان الصيد الفعلي يتولاه الرجال فيما تكتفي النساء بدور المتفرج. وقد بدأت تعتاد هذا الوضع التقليدي في اسبانيا.

حضّها انطونيو على ارتداء تنورة داكنة وسترة، وأن تعتمر قبعة جلدية كبيرة فوق شعرها الاحمر. ولم تعد احمرار الضحكات تكن انطونيو ابتسم راضياً عن شكلها وأمال القبعة لتظلل جبينها وقال لها مبتسماً:

«تبدين وكأنك اسبانية حقيقية».

وابتسمت مشككة ثم سألته:

«اسبانية بشعر احمر؟».

«هناك نساء اسبانيات شعرهن احمر يا ابنتها الصغيرة وفي امكانك ان تكوني خوانيتا فرنسيسكو رائعة».

واحتضن ذقنها بيده لبرهة ثم اضاف برقة:

«وباستثناء لون بشرتك الفاتح طبعاً».

واحنى رأسه بسرعة وعانقها لوهلة. احست جيني بخفقات قلبها تستجيب تلقائياً لحركته اللطيفة وقالت له ضاحكة:

«لن أصير سمراء ابداً، مهما جلست في الشمس».

ولامست اصبعه فكها تداعبه ونظر اليها مبتسماً ملتزماً الصمت لبعض الوقت ثم هز رأسه وقال لها برقة:

«لا أريدك سمراء ابداً».

سكتت جيني وأبقت عينيها مطرقتين. كانت تريد البوح له بامور كثيرة لكنها كانت لا تجد الكلمات المناسبة للتعبير عما كان يخالجها في اليومين الماضيين. وكان قد أقسم لها الا يكلمها عن الزواج ثانية ولم ينكث بوعده حتى الآن وكانت تشعر بالقلق كلما احست بلهفتها لسماع كلامه عن الزواج.

وسألها بصوت هادىء:

«هل من امر يقلقك يا جيني؟».

وهزت رأسها لكنها بدت مشغولة البال فرفع ذقنها من جديد ونظر اليها بعينين سوداوين ثاقبتين وسألها بدقة:

«هل الصيد هو الذي يشغل بالك؟».

ورفعت كتفيها مرتبكة ثم وافقت قائلة:

«ليس فعلاً».

ونظر الى جدية وجهها بعض الوقت ثم داعب خدها وقال:

«اذن لماذا تبدين حزينة بهذا الشكل؟ لا عليك فسوف تلتقين بأصدقائي».

وتراءت لها صورة ماريا غازاريس فاكفهر وجهها وقالت:

«آمل ذلك».

رمقها مرات عدة في طريقهما الى ستتران وكان يبتسم في كل مرة لكنهما لم يتكلما كثيراً وتساءلت عما اذا كان مدركاً مدى تخوفها من مقابلتها لماريا غازاريس. فلن يكون هناك الكثير من الناس وتمنت لو حصل العكس فتندر فرص الاتصال المباشر بينهما.

كانت ترتاح لخوسيه غارسيا وزوجته لكنها تجهل كل شيء عن دون ميغيل غازاريس وتمنت لو كان أقل عداء تجاهها من ابنته بيد ان هذا الأمر يبدو مستبعداً في هذه الظروف.

ولكن اذا كان يحبذ فكرة زواج ماريا من انطونيو فمن المؤكد انه يعتبر جيني دخيلة غير مرغوب بها. ولربما اعتاد مع السنين اعتبار انطونيو صهره المستقبلي. وسوف يصاب بصدمة عنيفة اذا ما تلاشت آماله بسبب مجيء خصم لماريا. لا يكفي ان يكون الخصم هذا غريباً عن البلد ويمتلك حصة في مؤسسة فرنسيسكو بل يصغر ماريا بعشر سنوات وأكثر.

وارتعشت من جديد لما يتنظرها فالتفت انطونيو نحوها. ورمقها متعجباً ثم سألها:

«هل تشعرين بالبرد يا جيني؟».

وكان الجو دافئاً كعادته في الصيف ولا أثر لأي نسيم:

«لا ابداً. انا آمنة ورائعة».

«خيل اليّ اني رأيتك ترتعشين».

وهزت جيني رأسها وقد تسارعت خفقات قلبها وحاولت تفسير ما احست به:

«كنت... كنت أفكر بـ...».

وعضت على شفتها وهزت رأسها مجدداً لعدم عثورها على الكلمات المناسبة وغارت عيناها في ظل القبعة الجلدية المنحدرة على جبينها وقالت برقة وهي موقنة انه لن يقتنع بكلامها:

«لا شيء».

ونظرت الى وجهه الصقري الداكن وقد زادتها ظلال الكروم وأشجار الزيتون المتوارية قسوة وبدائية وادار رأسه نحوها من جديد وقد ضاقت عيناه ريبة:

«اما زلت قلقة بسبب الناس الذين ستقابلينهم؟».

ولاحظت علامات نفاد الصبر في صوته. خاطبها مستعملا اللقب

الساخر الذي كان قد احجم عن استعماله في الأيام القليلة الماضية:

«أنت تتصرفين بسخافة ابنتها الحمقاء الصغيرة. ما الذي يدعوك الى هذا القلق؟ أنت تعرفين خوسيه وتيريزا وسبق لك ان قابلت ماريا».

ووافقت جيني قائلة:

«قابلتها مرة واحدة. وهي لم تستلطفني كثيراً».

فسألها بسرعة:

«وهل استلطفتها أنت؟».

وهزت رأسها لا شعورياً.

«هل تكرهينها؟».

بدا فضولياً اكثر منه مضطرباً للاحتمال هذا. وقطبت جيني حاجبيها غير راغبة في الانجراف في موضوع ماريا غازاريس. وقالت بصوت حاولت تثبيته قدر المستطاع:

«لست مضطرة الى الاجابة عن سؤالك».

وضحك ضحكة قصيرة فيها عالج منعطف طريق:

«لا داعي لأن تجيبي عن سؤالي. لكنني فضولي لأعرف السبب».

وانقبضت يدا جيني بقوة في حجرها وأيقنت انها بصدد الانهزام كعادتها في هذه المشادة الكلامية وقالت بصوت خافت ومخنوق:

«ربما لأنني ادرك مقدار كرهها لي. وأنت، أنت يا انطونيو ادرك الناس بالسبب».

«وماذا بعد؟».

وتراءى لها جانب وجهه الصخري القاسي فأحست برعشة تعتريها لرفضها الخوض في جدل جديد معه خشية من النتيجة. وصمتت لوقت طويل وحوّلت انتباهها الى جو الريف الساحر في الضوء الخافت.

كل شيء احاط بها كان يحثها على تفادي الجدل.

غرابة اشكال الاشجار التي شمخت في السماء الداكنة وظلال

كروم العنب الممتدة حتى الأفق فوق التلال والناس وقد مشوا في طرقات القرى المغبّرة مستمتعين بعد نهار عمل قاس وحتى الاطفال نصف العراة يلعبون على جنبات الطريق او يطأطئون رؤوسهم على الأكتاف الرحبة. كل هذه الاشياء كانت تدعو الى السلام والتأمل. فقالت جيني بتردد:

«انطونيو».

لكنه لم يلتفت نحوها كما توقعت وشكرت الله انه لم يفعل اذ سنح لها الوقت لأن تستعيد انفاسها وان تكبح جماح رغبتها المفاجئة في البكاء ونجحت في القول اخيراً:

«لا اريد خوض نقاش معك. لا أريد ذلك».

ومدّ يداً سمراء غطّت يديها وعصرت اصابعه القوية اناملها حتى كادت تسحقها ثم قال لها بصوت رقيق:

«اذن لا تفعلي يا حبيبتي».

«انطونيو».

«نعم ايتها الصغيرة».

وهزت جيني رأسها وتنهدت بصوت خافت فيما استلقت في مقعدها وأغمضت عينيها لوهلة مدركة عبث محاولاتها افهامه وقالت بصوت خافت ومذعن:

«لا شيء».

كان المنزل في ستراتو مشعاً ولم يكن حلّ الظلام بعد وأدركت جيني ان الشرفات الرومنطيقية المكسوة ازهاراً هي التي تحجب قسماً كبيراً من النور عن الطبقة السفلى وتحتم الاضاءة المبكرة.

وشعرت بإحساس غريب يلفها لدى اقترابها من المنزل ورمقت انطونيو بطرف عينها يترجل من السيارة ويأتي نحوها ليفتح لها الباب.

كانت جيني متأكدة ان خوسيه غارسيا صدق خبر خطبتهما مما يعني ان زوجته تشاركه في اعتقاده هذا وتمنت لو استطاعت مقابلتها اولا لتوضح لها الموقف.

ورأت جيني سيارة اخرى متوقفة امام المنزل وايقنت ان صاحبها هو دون ميغيل غازاريس وتلاشت الآمال القليلة التي راودتها سراً في احتمال تغيّب ماريا ووالدها وراح قلبها يخفق بسرعة جنونية حين تأبط انطونيو ذراعها يساعدها على الترجّل من السيارة، وسألها بصوت رقيق:

«هل انت على ما يرام؟».

وأومأت ايجاباً لكن من دون اقتناع.

كانت تيريزا غارسيا امرأة ممتلئة الجسم ودودة الطبع تناهز الثلاثين من العمر وقد ارتاحتا، هي وجيني الواحدة للأخرى منذ اللحظة الأولى للقائهما فابتسمت جيني حين رحّبت بها مضيفتها متناسية للحظة هموم السهرة المقبلة.

«اهلاً وسهلاً بك يا خوانيتا. تفضّلي ارجوك تفضلي».

ونظرت تيريزا الى جيني بعينيها الداكنتين والخجولتين ثم مدّت يدها تصافحها وايقنت جيني ان ساعة الحقيقة قد دقت وحبست انفاسها مذعورة تنتظر لحظة ورود التهاني فقالت مترددة:

«تيريزا».

وحاولت جاهدة ايجاد الكلمات المناسبة فيما وقف انطونيو على بعد قدمين منها بحيث يمكنه سماع كل ما يدور بينهما. وهمست تيريزا غارسيا تسألها:

«اتودين اخباري عن زواجك اليس كذلك؟ اني على علم به فقد اخبرني خوسيه يا خوانيتا».

وصاحت جيني بيأس محاولة توضيح الأمر قبل فوات الأوان:

«انت وخوسيه لا تعيان حقيقة الأمر كاملة. لست خطيبة لانطونيو. لقد حصل خطأ واتمنى لو استطعت افهام زوجك آنذاك. لقد حاولت ولكن . . .».

وتوقفت عند هذا الحد اذ شعرت بعيني انطونيو السوداوين تحدّقان فيها وأدركت انه سمع ما قالته. لم يبد غاضباً بقدر ما بدا متألماً ونظر

اليها بعينين غائرتين حزينتين ولّدتا فيها شعوراً غريباً بالذنب جهلت سببه.

ورددت تريزا غارسيا:

«خطأ؟».

وراحت تنتقل بنظراتها من انطونيو الى جيني، تحاول فهم هذا التناقض.

وقطع انطونيو الخطوات القليلة التي كانت تفصل بينهما ووقف بجانب جيني يحدق فيها لكنه خص تيريزا بابتسامة حزينة وقال بصوت رقيق:

«انه لأمر محزن لكنها الحقيقة يا تيريزا. لقد صدتني ابنة عمي الجميلة».

وحبست جيني انفاسها عندما ادركت ان انطونيو عنى ما قاله عن انتهاء كل شيء بينهما وراح قلبها يخفق في صدرها حين تراءت لها الخطوة البديلة لقبوله رفضها له، اذ سيقدم حتماً على الزواج من ماريا كما كان سيفعل لو لم تصبح جيني شريكة له في المؤسسة العائلية.

«انت تعني ان خوانيتا قد . . .».

وامتلأت عينا تيريزا الداكنتان استهجاناً حتى خيّل الى جيني انها على وشك الظن ان المسألة مجرد نكتة. لكنها تذكرت ان الطبع الاسباني ليس ميالاً الى المزاح بسهولة وايقنت ان الخبر قد صدم فعلاً مضيفتها التي قالت بصوت مذهول:

«لا يا خوانيتا هل حقاً فعلت ذلك؟».

لم يعطها انطونيو الوقت الكافي للاجابة وسرّت جيني لهذا اذ كانت تلاقي صعوبة كبيرة بالاستمرار في هذه المواجهة وقال يوضح الأمور لتيريزا بصوت هادىء متفاديا النظر الى جيني:

«اخطأت في استباقي الأمور بهذا الشكل. ولقد وعدت جيني الا اتطرق ثانية الى هذا الموضوع».

وذهلت جيني لسماعها كلامه وما زاد من ذهولها هو انزعاجها

لسماعها امراً كانت تحاول تحقيقه بكل قواها.

وصمتت تيريزا غارسيا لبرهة ثم وضعت يدها على ذراع انطونيو بحركة حميمة زادت من اضطراب جيني وقلقها ثم قالت بصوت ناعم:

«اني آسفة يا طونيو».

وابتسم يهز رأسه.

ولم تستطع جيني معرفة ما اذا كان سيجيب اذ ظهر في هذه اللحظة خوسيه غارسيا وبرفقته ماريا غازاريس ورجل قصير القامة نحيلها، قاسي الملامح يرتدي ثياباً سوداً وارتعشت جيني حين رأته.

وحين رأت هذا الرجل المتعجرف وابنته ادركت جيني فجأة انها الحقت مقداراً كبيراً من الأذى بانطونيو حين كذبت خبر خطبتهما. كان انطونيو رجلاً فخوراً بنفسه الى حد العجرفة احياناً وبات عليه الآن ان يعترف لهؤلاء القوم ان المرأة التي كان ينوي الزواج منها قد رفضته. وقع نظر ماريا غازاريس عليها فضاقت عيناها وكأنه يستحيل عليها اخفاء كرهها لها حتى ولو بداعي حسن الأداب. ولم يكن رأي ابيها مختلفاً عن رأيها فيما يتعلق بجيني.

وخاطبه خوسيه غارسيا:

«دون ميغيل اظن انك لم تقابل بعد الآنسة خوانيتا فرنسيس وهي ابنة عم طونيو وخطيبته. آنسة فرنسيس اقدّم لك دون ميغيل غازاريس»

«كيف حالك يا آنسة؟».

كان صوته بارداً كعينيه اللتين نظرتا اليها بازدراء مهذب وتمتمت جيني ترحيباً وسارعت الى سحب يدها من قبضته الباردة القاسية وفي يقينها ان ماريا غازاريس تراقبها بعينين فاحصتين.

«مساء الخير يا آنسة فرنسيس. هل تحبين الصيد؟».

ورفعت حاجبيها وكأنها تشكك في ملاءمة القبعة الجلدية لرأس جيني وأحست جيني للمرة الأولى بالارتباك لاعتمارها.

وأدركت جيني ان طرح ماريا للسؤال هو بقصد دفعها الى الاعتراف بانها تنبذ فكرة القتل بداعي الرياضة لكنها قررت الا تنجرف بسهولة ورفعت كتفيها مدركة ان انطونيو يراقبها وقالت بصوت ارادته ثابتاً:

«لم اشاهد هذا النوع من الرياضة من قبل يا آنسة غازاريس فلا استطيع ابداء رأي فيها».

لم يخطر في بالها معاودة تكذيب خبر خطبتها من انطونيو وأحست بنظرة تيريزا غارسيا المرتبكة حين لم تصحح تعريف زوجها لها بخطيبة انطونيو. وربما تساءل انطونيو عن ذلك ايضا.

لم تكف ماريا عن مراقبتها وكأنها صقر وقد فاض الكره من عينيها السوداوين وتخشن صوتها ثم قالت:

«افترضت انك تقاسمين حساسية مواطنيك السخيفة فيما يتعلق بالحيوانات. ولم تحضري اية حملة مصارعة للثيران منذ قدومك اليس كذلك؟».

«كلا لم احضر».

وهزت جيني رأسها تحاول بجهد السيطرة على اعصابها وتساءل اذا كان هذا العداء لها سيستمر طوال السهرة فيتعذر عليها عندئذ الاحتفاظ بتهذيبها. كانت تكره ان تزعج مضيفتها. وربما كان الحل الوحيد ان تغادر الحفلة بمفردها اذا اقتضى الامر.

حملوا قفصاً فيه بومة واتجهوا نحو موقع الصيد وذعرت جيني اذ ادركت ان الطعم المستعمل لاجتذاب النسور هو عبارة عن بومة طولها ثلاثون سنتمتراً تقريباً. شرسة المظهر، رُبطت بحبل مد بين شجرتين فتجتذب محاولاتها للافلات النسور الملكية السوداء اللون فتنقض عليها.

واختبأ الفريق المؤلف من ستة اشخاص في مخبأ بني خصيصاً لهذه الغاية بين الأشجار وقبعوا ينتظرون اللحظة التي ترفرف فيها البومة باضطراب منذرة بقدوم احد الطيور المفترسة الكبيرة. وارتاحت

جيني حين ادركت انه نظراً لاقتراب الظلام، فلن يتمكنوا من متابعة الصيد لوقت طويل.

لم يكن المخبأ واسعاً وبدا لجيني انه من الطبيعي ان تجد نفسها واقفة بالقرب من انطونيو الذي انتصب ينتظر مجيء طريدتهم وفي يده بندقية الصيد. وأحست جيني من جديد بقساوته وبدائيته وكأنه يشبه ذاك الطائر الغاضب والثائر امامها وتلك الطيور التي لا بد ان تكون قد بدأت بالتحويم في السماء منتظرة لحظة الانقضاض على فريستها.

واحتقنت حين لمست ذراع انطونيو بشرتها الناعمة فالهبتها وكأنها نار متأججة. وأدار رأسه نحوها. فتراءت لها ملامحه الذاكنة وبريق عينيه السوداوين وبياض ابتسامته وهمس في اذنها:

«ما بك ايتها الحمقاء الصغيرة؟».

والتهت الى ماريا غابازاريس تدير رأسها بسرعة في اتجاهها فأجابته جيني بصوت خافت:

«لا شيء».

وسمعت ضحكته الهادئة تدوي في الغبش فاهتز جسمها من ارتجاجها على غرار ما حدث من قبل. وهمس بالاسبانية:

«انت كذابة».

وفهمت معنى كلامه لتوّها.

وما هي الا لحظة حتى سمعت البومة ترفرف جناحيها وتهتاج لاقتراب عدوها وشخّط الرجال السماء بعيونهم بحثاً عن طريدتهم. واهتاجت البومة مذعورة لكونها مقيّدة وتحت رحمة النسر الاسود الكبير الذي حلق على علو منخفض فوق الموضع وكأنه يمهّد للانقضاض.

ودلّ تحليقه التمهيدي هذا على وشك انقضاضه وعلى ضرورة رميه. وسمع دوي البنادق الثلاث فأغمضت جيني عينيها وكأنها ترفض مشاهدة لحظة الحقيقة حتى ولو كانت تتويجاً لجهود الصيادين. لقد سبق لها ان شاهدت تلك النسور البيض والسود تحلّق بأجنحتها

الواسعة في السماء وأزعجها ان ترى احدها مصاباً حتى ولو قتل من اجل سلامة القطعان والغزلان التي كان يفتك بها.

رقد النسر على الأرض لا يحرك ساكناً والدماء تتدفق منه لكنه استطاع الاحتفاظ بمظهره المعتز.

ولم تلحق جيني بالآخرين الذين تجمعوا حوله ونظرت عوضاً عن ذلك الى البومة المقيدة بالحبل وقد جمدها دوي الاسلحة ومصرع عدوها.

وقبل ان تعي ما يجري لها وجدت نفسها تقترب منها وعيناها الشرستان تحدقان فيها وبدأت تفك الرباط عن قدميها فلم تحرك ساكناً فظنت جيني انها ستستطيع اكمال مهمتها بسلام لكن ما كادت تفك آخر عقدة وتطلقها حتى لسعتها فجأة ومن دون انذار. وغرزت مخالبها في ذراعها العارية ثم عضتها بمنقارها الحاد القاطع كالسكين وكأنها ترد لها الجميل على معروفها فصرخت لألمها وحضنت ذراعها المجروحة وهوت الى الارض وقد اتسعت عيناها لا تصدقان ما حدث فيما طارت البومة فوق اعالي الاشجار.

واستدار انطونيو على نفسه حين سمع صرختها وتابع نظراتها واستعد لرمي الطائر ببندقيته لكنها سمعت نفسها تصيح به:

«لا يا طونيو لا! ارجوك لا ترمه».

واستدار مجدداً بسرعة ورأى الجرح الطويل النازف في ذراعها وهرع نحوها فيما دوى صوت احدى البنادق كان يلعلع. وغمرت الدموع عينيها ورأت ان دون ميغيل هو الذي اطلق النار ثم شاهدت كتلة صغيرة تهوي من السماء وأدركت انها ما تبقى من مهاجمها الذي تطاير ريشه وهوى على الأرض بخفة.

ركعت تيريزا غارسيا بجانبها والقلق باد في عينيها ويداها السمينتان تتفحصان جرحها بلطافة وتنهدت بلطف قائلة:

«مسكينة يا خوانيتا. يا لك من فتاة متهورة».

وردد انطونيو ما قالته تيريزا وقال بصوت رقيق ومستسلم وقد ركع

بجانبها:

«ايتها الحمقاء الصغيرة. كنت اعلم انك لن تستطيعي مقاومة القيام بعمل رائق يا حبيبتي. لم تستطيعي المقاومة أليس كذلك؟».

وقالت له بصوت خافت:

«لا يمكنك فهمي، لا يمكنك ذلك».

وهز رأسه وقال بصوت رقيق:

«انني افهمك كل الفهم يا ايتها الفتاة الصغيرة».

وبينما تجمّع حولهم الباقون أضاف:

«آه، لو كنت تلبين نداء قلبك في المسائل الأخرى كما فعلت حيال هذا الطائر لسهّلت الامور علينا كثيراً».

وقالت تيريزا بصوت ثابت وناعم:

«ينبغي تضميد الجرح وعرضه على طبيب».

وأومأ انطونيو موافقا على كلامها. ولفّ خصر جيني بذراعه وساعدها على النهوض محتفظاً بيده حول خصرها حتى بعد ان وقفت تتكىء على ذراعه مما اغضب ماريا غازاريس وسألها:

«هل انت قادرة على السير ايتها الطفلة ام تشعرين بالضعف».

وأجابته جيني بصوت مرتجف:

«أنا بخير. استطيع السير يا انطونيو. شكراً».

كانت تخشى الا يصدقها فيحملها بين ذراعيه، فلا تستطيع عندئذ مقاومة رغبتها في دفن وجهها بصدره الرحب والبكاء. وحاولت تفادي اكتراثه المفرط بها خصوصاً أن ماريا غازاريس كانت تراقبها عن كثب. وأيقنت ان تيريزا غارسيا كانت ترى اهتمام انطونيو بها بعين غير مصادقة وقد رأتها تصدّه من قبل وتناول منديلا ابيض كبيراً من جيبه ولفه برقة حول ذراعها الجريحة وخفف القماش البارد من آلامها للحظة. كان الجرح يؤلمها كثيراً برغم انكارها ذلك.

عاد الجميع ادراجهم الى المنزل بعد ان تعذر حتى على الذين لم

يكترثوا لاصابة جيني متابعة الصيد لفقدانهم البومة. وسارت تيريزا غارسيا الى جانبها وانطونيو الى الجانب الآخر ليساعدها وعضت جيني على شفتها لتزايد آلامها.

وتقدمت تيريزا باقتراح لطيف اذ قالت:

«استطيع تضميد الجرح قبل الذهاب الى الطبيب. انه يؤلمك أليس كذلك يا خوانيتا؟».

وأومأت جيني ايجاباً وألقى انطونيو نظرة حادة اليها وشدد قبضة ذراعه حول خصرها ثم هز برأسه وقال بصوت عادي:

«من الأفضل ان نذهب فوراً الى الطبيب. ان الجروح التي سببها مخالب الحيوانات المفترسة معرّضة لخطر التسمم ولا اريد تحمّل مسؤولية موت هذه الطفلة المجنونة».

أدركت جيني انه لم يكن جاداً في كلامه لكن ماريا غازاريس التي كانت تسير وراء جانيو والدها كان لها رأي مختلف وحثت خطاها حتى اصبحت تسير الى جانب انطونيو وقد استاءت لفشل مهرتها الرياضية ولرؤيتها ذراع انطونيو حول خصر جيني. وخاطبت انطونيو بصوت قاس وبارد قائلة:

«هذا عمل منتهى الغباء وليس من احد يحسدك عليه يا طونيو».

ولم تكن جيني في وضع يسمح لها بالتكلم دفاعاً عن نفسها وتوقعت ان يدافع انطونيو عنها وان اكتفى بالتعبير عن تفهمه لدوافعها. وكان قد اظهر لها وقت الحادثة انه متفهم لدوافعها وقد قدرت له ذلك لكنه بدا الآن وكأنه يستصعب التعاطف معها وابتعدت عنه جيني لحظة سمعته يقول بقساوة:

«انني ادرك انها قامت بعمل غبي يا ماريا لكن هذا لا يمنع كون الجرح مؤلماً وخطراً ينبغي ان آخذ جيني الى الطبيب حالا كي يعالج جرحها».

ولم تعرف جيني في حياتها حالا اسوأ من تلك التي كانت فيها الآن وعضت على شفتها لبعض الوقت محاولة امساك دموعها التي كانت

تنهمر وقالت له بصوت مختنق:

«لا تزعج نفسك. انني اكيدة ان دون خوسيه لن يتردد في مرافقتي الى عيادة الطبيب».

وانسلخت عنه بقوة وكادت ان تقع على الأرض لانحجاب رؤيتها بالدموع لكنها تابعت:

«ساكره نفسي ان افسدت سهرتك وسهرة الآنسة غاراريس».

وخيم سكوت مزعج لبعض الوقت وكانت تسير بجانب تيريزا غارسيا بخطى صغيرة غير ثابتة واذا بانطونيو يلحق بها فجأة ويشد على ذراعها السليمة بقوة من شدة غضبه.

وهمس في اذنها بسرعة كي لا تستطيع ماريا غازاريس سماعه:

«ستكفين عن التصرف وكأنك طفلة غبية والاستعراض امام الناس وتعالي معي الآن إلى الطبيب ودعينا من المزيد من عداوتك».

«لا».

«لا اهتم ابداً بما تريدين وما لا تريدين. لقد استفززتني ما فيه الكفاية هذا المساء يا عزيزتي واني انصحك بأن تأتي معي الى الطبيب من دون جدال والا كشفت لك قدرتي على ايذائك. مفهوم؟».

ولم تنبس بكلمة. وقد فقدت معظم قدرتها على المقاومة وكانت تجهل ما قد يقدم عليه لحملها على الاذعان. وتذكرت ثورات غضبه العاتية وأدركت انه على وشك بلوغ حد الغليان وفقدان السيطرة على اعصابه وقد يؤذيها عندئذ. وأصر بعد ان التزم الصمت للحظة:

«هل تصغين اليّ؟».

وأومأت جيني ايجاباً. ثم التفت نحو ماريا غازاريس من جديد محتفظاً بأصابعه على ذراع جيني وسألها:

«أراك غداً صباحاً. أليس كذلك؟».

ونظرت اليه ماريا رافعة حاجبيها تسأله:

«ولكن ألن تلحق بنا بعد مرافقتك لابنة عمك الى الطبيب ثم الى المنزل؟ ألن تعود لتقضي السهرة معنا؟».

ونظرت الى تيريزا تسألها عن رأيها فوافقت تيريزا بعد ان ألقت نظرة قلقة على جيني ثم على زوجها الذي سار وراءهما برفقة دون ميغيل. وقال خوسيه غارسيا لصديقه:

«طبعاً يا صديقي طوني. من الواضح ان الآنسة فرنسيس لن تكون راغبة في اللحاق بنا لكن ان كنت انت راغباً في ذلك فأهلاً وسهلاً بك».

وقالت ماريا تشجعه بصوت ناعم وعيناها الداكنتان تتوسلان القبول:

«اذن عد الينا يا طوني. ألن تعود؟».

وألقى نظرة متسائلة على جيني ثم رفع كتفيه وقال:

«لا أرى سبباً لأن لا اعود».

وادركت جيني ان ما قاله حقيقي. اذ لم يعد يربطه بها اي رابط حتى ذلك الوعد بالزواج القائم من جهة واحدة وقد قطعته الليلة واحست بصغرها وضياعها خطة لصورته عائداً الى لقاء ماريا غازاريس كما اعتاد ان يفعل من قبل.

لم تنبس بكلمة بل جلست الى جانبه في السيارة المسرعة على الطرقات الريفية الداكنة وانهمرت الدموع على خديها ويديها ولم تكن تلك الدموع بسبب ألم جرحها فقط

٨ - السيارة المعطلة

بدا اهتمام انطونيو بذراع جيني المجروحة صادقاً رغم انه لم يتوان في لومها. اما دونا صوفيا فلم تخف قط ازدراءها لغباء جيني. حتى عمها لاقى صعوبة في تفهم دوافعها، لكونه متشرباً الروح الاسبانية التقليدية التي لا تولي اهمية الا لحياة البشر وذلك برغم لطفه. لقد هز رأسه محاولاً التعاطف معها لكنه ارتبك حين اخبرته عن دوافعها.

لم تر انطونيو كثيراً في الأيام الثلاثة التي تلت وظنت انه يمضي معظم وقته برفقة ماريا غارازيس. ولم تكن قادرة على الخروج من المنزل اذ آلمها ذراعها كثيراً لكنها شعرت انها مهملة بعد ان توقف عن الاهتمام بها. وادركت ان الذنب يقع عليها وحدها لانها اوضحت لتريزا غارسيا انها عازمة على رفض الزواج من انطونيو. ولا يلام الرجل ان قرر الاهتمام بمن يقدر له ذلك. وكانت جيني تحس بالتململ والضياع حتى انها راحت تفكر جدياً في اليوم التالي لرحلة الصيد بحزم امتعتها والعودة الى انكلترا. وتساءلت هل سيحاول احد ثنيها عن الرحيل هذه المرة لكنها كانت متأكدة ان انطونيو لن يبالي كما فعل لبضعة ايام خلت.

وجلست في الباحة على عادتها وشعرت بالكسل والنعاس في شمس اواخر شهر آب فيما رقد كتاب دون كيشوت في حضنها ولم تكن فتحته بعد. كان الجو ساكناً لا يعكره سوى طنين النحل في ازهار المانوليا التي التجأت الى ظلالها وتغريد العصافير التي قارب

وقت مبيتها.

وسمعت رنين الهاتف يدوي في ارجاء المنزل وتكرر رنينه مراراً حتى اوشكت على النهوض للاجابة لكنه توقف فجأة فأغمضت عينيها مرتاحة وابتسمت. كان عليها بذل مجهود كبير فيما لو قامت تجيب.

وتكهنت ان المخابرة لدونا صوفيا اذ كان عمها يزور المعمل وانطونيو خارج المنزل وهي تجهل ان كان برفقة ابيه ام لا. وعادت الى افكارها واذا بها تفاجأ بعد لحظات وجيزة بيد تلامس ذراعها بنعومة وفتحت عينيها فرأت الخادمة واقفة الى جانبها بوجهها النحيل الداكن وقد فاض منه الفضول كعادتها.

كانت ماتيلد من خدم عائلة دونا صوفيا القدامى وهي تشارك معلمتها رأيها في الدخلاء. وقالت لها ماتيلد:

«عفواً يا آنستي. هناك مخابرة لك».

وقطبت جيني حاجبيها مرتبكة تحاول ترجمة ما قالته الخادمة ثم سألتها:

«مخابرة لي؟»

واومأت المرأة ايجاباً رافضة التكلم بالانكليزية كعادتها:

«نعم يا آنستي».

وخلعت جيني نظارتيها الداكنتين وجلست على حافة الكرسي متسائلة عن هوية المخابر:

«من المتكلم يا ماتيلد. هل عرف عن نفسه؟».

«نعم يا آنستي انها السيدة غارسيا».

«تيريزا!؟».

ونهضت جيني بنشاط مبتسمة ومتلهفة للتكلم مع صديق:

«شكراً يا ماتيلد انني قادمة».

وهرعت نحو الهاتف وتناولت السماعة:

«مرحباً يا تيريزا».

«مساء الخير يا خوانيتا كيف حالك؟».

اعتادت تيريزا مخاطبة جيني بالاسبانية بتحريض من انطونيو لكنها احست اليوم انها في حال من الكسل لا تشجعها على الخوض في متاهات الاسبانية فقالت لها:

«اني على ما يرام يا تيريزا شكراً. لكن هلا تكلمنا بالانكليزية فذهني لا يتحمل الاسبانية في هذا الجو الحار ولغتك الانكليزية اجود من اسبانيتي بكثير».

وسمعت ضحكة تيريزا تفرقع في اذنها على رغم المسافة فابتسمت:

«شكراً يا خوانيتا. لكني كنت اتساءل اذا كنت راغبة في القدوم لزيارتي. ما رأيك؟»

«الآن؟».

ولم يكن تردد جيني مرده الى عدم حماستها للفكرة بل لم تكن واثقة من قدرتها على تحمل قيادة السيارة اذ كانت ذراعها لا تزال تؤلمها كلما حركتها.

«نعم. الآن».

وضحكت تيريزا ثم تذكرت فجأة:

«آه يا خوانيتا. نسيت ذراعك المجروحة. انني آسفة. اعذريني».

واجابتها جيني بخفة:

«لا. ليس الأمر بهذا السوء. فالخطأ كان خطأي واني اتوق الى رؤيتك. سأصل بعد قليل. حالما اغير ملابسي».

«عظيم. اني في انتظارك».

وقد بدا من صوت تيريزا انها متلهفة لزيارتها.

ودخلت جيني على عمتها تخبرها بداعي اللياقة عن زيارتها المقررة لسنتران لكن الدونا قطبت جبينها لسماعها الخبر مما اربك جيني وسألتها دونا صوفيا بنبرة قاسية:

«وما الهدف من زيارتك هذه؟».

وبدا اشمئزازها لفكرة الزيارة واضحاً الى درجة ازعجت جيني واغضبتها وقالت لها بصوت ثابت:

«دعتني تيريزا غارسيا لزيارتها. وارجوك ان تعذريني دونا صوفيا فأنا ذاهبة لتغيير ملابسي قبل ان اخرج. الى اللقاء».

شعرت جيني ان دونا صوفيا حاولت ابقاءها لسبب تجهله. لربما شعرت ان آل غارسيا هم اصحاب انطونيو ولا يحسن ان تزورهم بمفردها. وكانت متأكدة ان محاولة عمتها ثنيها عن الذهاب لم تكن قط بدافع الاهتمام بذراعها المجروحة.

كانت هذه المرة الأولى التي تقود فيها جيني السيارة الى سنتران وكان عليها بذل مجهود كي تتذكر الطريق على رغم انها تعرفت على بعض الاشارات البارزة ودهشت لشعورها ببعض التحسر في اثناء مرورها ببعض الاماكن التي زارتها برفقة انطونيو، وكأنها حبيب يزور امكنة حبه القديم لكنها سارعت الى قطع حبل تخيلاتها.

واكتشفت بسرعة ان القيادة آلمت ذراعها اكثر مما توقعت لكنها اعتبرت ان بعض الألم يستحق تمضية ساعة او ساعتين برفقة تيريزا غارسيا. وأسفت لكون عمتها لم تعاملها بروح حسن الضيافة الاسبانية التقليدية لانها لو فعلت لكانت الحياة في المنزل افضل بكثير.

ورحبت بالنسيم الذي رفع شعرها عن عنقها وبدأ يبرد جبينها وسرت لكونها ارتدت فستاناً لا اكمام له واسع الفتحة اذ اتاح للهواء العليل المرور ان يداعب ذراعيها وكتفيها. لكنه كان بالطبع يظهر الضمادة التي شوهت ذراعها الا ان هذا كان امراً لا بد منه ولم تتساءل عن الدوافع التي حدت بتيريزا الى دعوتها المفاجئة هذه الا بعد ان شارفت على الوصول الى منزل آل غارسيا.

لم تكن هذه زيارتها الأولى لآل غارسيا لكنها كانت دائماً في زياراتها السابقة برفقة انطونيو وعقدت حاجبيها للحظة عندما ادركت هذا الأمر لربما ارادت تيريزا اعلامها بانها لا تزال ترحب بها على رغم

رفضها الزواج من انطونيو.

وما ان اقتربت من بوابة الباحة الحديد حتى ايقنت سبب دعوة تيريزا لها وسبب استياء دونا صوفيا. كانت هناك سيارة واقفة في ظل اشجار النخيل وتعرفت جيني الى سيارة انطونيو بسهولة.

جلست في مقعدها لثوان عدة تنظر الى السيارة الاخرى وقلبها يخفق بسرعة جنونية وفكرة العودة فوراً تداعب ذهنها. واتضح لها ان تيريزا تحاول تحقيق غرض ما من جراء تدبيرها هذا اللقاء لكن ما شغل بال جيني هو ردة فعل انطونيو المحتملة فيما لو اعتقد انها لحقت به. وسيربكها كثيراً ان فسر مجيئها على غير حقيقته.

وكانت تعلم ان رفضها الزواج من انطونيو اقلق تيريزا وقد اتضح لها ذلك من تصرفات تيريزا في اثناء حفلة العيد ولم تكن تيريزا بالسذاجة التي يوحي بها مظهرها لكن محاولتها هذه قد تزعج احد الفريقين اللذين تحاول جمع شملهما.

لم تر جيني بديلاً من ترجلها والدخول الى المنزل بعد ان قاست الامرين للوصول اليه فتنهدت مستسلمة وترجلت من السيارة في الوقت الذي اطلت فيه مضيفتها. ودوت قرقعة مؤخرة حذائها على ارض الباحة الحجرية فهرعت مضيفتها باسطة ذراعيها تأهيلاً:

«اهلاً بك يا خوانيتا».

ورمقت سيارة انطونيو الضخمة البراقة امام سيارة جيني الاصغر حجماً وابتسمت ابتسامة خجل وكأنها تعتذر وبسطت يديها بحركة عبرت عن الرضى والاعتذار في آن واحد.

«ارى ان لديك زواراً غيري».

قالت جيني ولم تستطع اخفاء ابتسامتها حين رأت علامات الريبة على ملامح تيريزا السمراء.

«هل كنت تعرفين انه هنا يا تيريزا».

«اجل».

واعتذرت من جديد بحركة من كتفيها فيما راحت تقودها عبر

الباحة. وقد وضعت يدها على ذراعها السليمة وكأنها تخشى ان تعود جيني ادراجها ثم سألت جيني:

«تمانعين في ان ادعوك لزيارتي بوجود انطونيو؟ اليس كذلك؟».

وهزت جيني رأسها مذعنة وسألتها:

«ولماذا امانع. فنحن نقطن منزلاً واحداً».

ثم ضحكت.

«آه. صحيح».

وعبرتا الباحة الظليلة التي تضاهي جمالها جمال باحة منزل آل فرنسكو بالوانها وعطر اشجار البرتقال وازهار الورود، في ظل اشجار النخل. ورطب خرير المياه في حوض الرخام المزخرف من حرارة الجو برغم ان الحرارة كانت قد خفت الى درجة كبيرة فالساعة تخطت الخامسة بعد الظهر.

وايقنت تيريزا ان جيني صفحت عنها لاخفائها خبر وجود انطونيو فقادتها الى داخل المنزل وصدمت جيني كعادتها في اثناء زيارتها لمنزل سنتا آنا لتأثير شخصية ربة المنزل على جو البيت.

لم يكن النيار الخارجي يختلف كثيراً عن منزل عمها لكن الجو الداخلي كان مختلفاً تماماً. وقد اضفى طبع تيريزا اللطيف جواً ودوداً محبباً على منزل سانتا آنا.

كان النصب التقليدي يتصدر المشى الواسع والبارد الجو لكنه كان اقل رهبة من التمثال الضخم المحاط بازهار الورود والبرتقال الذي في بيت عمها.

وقد تعلقت رسوم عدة تمثل معظمها اولئك الاطفال الداكني العيون والكئيبي المظهر الذين طالما احب الفنان موريلو رسمهم.

كان جو البيت ودوداً ومرحباً على غرار اصحابه وكانت جيني ترتاح دائماً فيه. سارت وراء تيريز ودخلتا القاعة الكبرى بجوها البارد وقد توقعت رؤية خوسيه غارسيا وانطونيو لكن الغرفة كانت خالية ورمقت جيني تيريزا متسائلة. فاشارت تيريزا الى كرسي وقالت

مفسرة:

«ذهب طونيو وخوسيه لركوب الخيل».

وابتسمت ثم جلست على كرسي قريب من جيني حتى يتسنى لها التحدث بصوت عادي.

«واظن ان انطونيو في صدد شراء بحيرة صغيرة».

وقالت جيني بصوت لم يخل من المعاتبة:

«كنت جاهلة تماماً وجوده هنا».

ورفعت تيريزا كتفيها بحركة تعبر عن امور كثيرة.

«وهل كنت رفضت المجيء؟».

لم تجبها جيني. كانت تود اخبار تيريزا عن اسباب رفضها الزواج من انطونيو لكنها كانت تدرك قوة العلاقة التي تربطها بزوجها بانطونيو ولم تكن واثقة من انهما لا يجدان موقف انطونيو ووالده من زواجهما. ونظرت الى تيريزا تنتقي كلماتها بدقة وقالت بصوت هادئ:

«نعم كنت رفضت المجيء!».

واحست لتوها بالذنب حين رأت عيني تريزا تفيضان لوماً:

«ولكن يا خوانيتا من المؤسف فعلاً ان تغيبي لان انطونيو موجود هنا فيما هو...».

وحاولت العثور على الكلمات المناسبة وتمنت جيني لو علمت مسبقاً بوجود انطونيو في المنزل. وقد تراءى لها بوضوح مقدار الاوهام التي تتخبط فيها تيريزا في نظرتها الى العلاقة بينهما ولن يسهل عليها اقناعها بالعكس لكنها قررت المحاولة. فقالت لها:

«اخشى ان تكوني جاهلة الكثير عما يدور بيني وبين انطونيو. واعتقد انه من المستحسن ان اخبرك الامر يا تيريزا لتفادي الاخطار».

وقالت لها تيريزا تطمئنها وقد بدت قلقة تخشى ان تظنها جيني عديمة اللباقة:

«لكن يا خوانيتا لست في صدد التدخل في شؤونكما. ارجوك الا تتصوري هذا. بل ظننت ان خلافك مع انطونيو هو خلاف بين حبيبين. هل تفهمين؟ يحزننا هذا الأمر كثيراً. فانطونيو صديقنا ويبدو تعساً جداً هذه الأيام».

«تعس؟ بالطبع لا يا تيريزا!».

«بلى. فالمسكين طونيو تعس جداً مذ رفضت الزواج منه ولم يعد كما كان واظن انه يتألم كثيراً...».

شعرت جيني ان من واجبها تصديق كلامها لكن غريزتها اوحت لها ان الرجال امثال انطونيو يتألمون لجرح في عنفوانهم لا في قلبهم. ولكنها ابت ان تبدي تعاطفاً معه كي لا تعطي صورة خاطئة عن شعورها. فهزت رأسها وابتسمت بمرارة:

«لقد جرحت عنفوانه. هذا كل ما في الامر. انت تجهلين القصة بكاملها يا تيريزا».

وقالت تيريزا بهدوء:

«اعرف ان طونيو يريد الزواج منك بكل قواه. وانني متأكدة من هذا الأمر يا خوانيتا».

ووافقت خوانيتا لتوها قائلة:

«بالتأكيد: او بالاحرى كان يريد. لكنه حاول اقناعي بالزواج منه لاسباب خاطئة ولم يكن لي وسعي ان اجاريه الرأي يا تيريزا».

«اسباب خاطئة؟».

وحدقت فيها باهتمام وفضول بالغين وتساءلت جيني عما اذا كانت النساء متشابهات جميعهن في ما يتعلق بمواقفهن حيال الآخرين.

وسألت تيريزا:

«هل تعلمين ان جدي - جدنا - قد ترك لي حصة في مؤسسة فرنسيسكو وابنه؟».

واومأت تيريزا ايجاباً ثم وافقت قائلة:

«اخبرني طونيو. ولقد فرحنا يا خوانيتا بالخبر».

وتكهنت جيني انه لا بد ان يكون قد عبر عن رأيه في الموضوع بحرية اكبر امام أصدقائه فباتوا يدركون مقدار مرارته وغضبه لفقدانه جزءاً مما اعتقد انه ارثه الشرعي».

وقالت جيني:

«لا الومه فعلاً على مرارته وغضبه».

وتساءلت وهي تتكلم ان كانت تيريزا ستنظر الى قراره الناتج من الموقف هذا بالأسلوب ذاته الذي تنظر به هي اليه. ثم تابعت:

«لا احب الحل الاحتياطي الذي اوجده من اجل استعادة ما يعتبره ملكاً له».

وانتبهت الى ان تيريزا مرتبكة جداً اذ قالت:

«وكيف ذلك؟».

احتاجت جيني الى ثوان عدة قبل ان تتمكن من حمل نفسها على اخبارها بافتقار انطونيو الدوافع العاطفية للزواج منها. اذ كانت لا تزال تلقى صعوبة جمة في مواجهة واقع الانفصال المرير. ولكنها تابعت بصوت هادىء:

«اخبرني انطونيو انه ينوي الزواج مني في اليوم الثاني لقدومي. هل تفهمين يا تيريزا؟».

وتمهلت تيريزا قليلاً قبل ان تجيب ثم تكلمت وهي تنظر الى يديها المتشابكتين:

«لا بد ان فتاة مثلك يصدمها هذا الأمر اكثر مني انا مثلاً».

كانت جيني قد توقعت سماع شيء كهذا فلم تفاجأ به لكنها هزت رأسها وقالت:

«لربما ظننت اني انسانة متزمتة سخيفة اليس كذلك يا تيريزا؟».

ورفعت تيريزا عينيها اخيراً وابتسمت لها قائلة:

«لا اعرف ما معنى «متزمت» يا صديقتي. لكني اعتقد انك انزعجت لكون انطونيو يريد الزواج منك كي يحصل على حصتك في المؤسسة. وانت تعتقدين انه فعل ذلك عن غير حب».

«طبعاً عن غير حب».

صاحت جيني في موقف الدفاع:

«وكيف تريدين ان يحبني ولم يعرفني بعد الا ليوم واحد وهو لم يسألني حتى عن رأيي».

وسألتها تيريزا:

«لقد زرت آل فرنسيسكو من قبل اليس كذلك؟».

واومأت جيني ايجاباً.

«اجل. اتيت لزيارتهم مرات عدة حين كنت طفلة لكني لم آت منذ سبع سنوات. وكنت في الرابعة عشرة من عمري آنذاك».

«ولكن لا بد ان انطونيو كان عرفك من خلال تلك الزيارات».

وظنت جيني انه لا بد ان يكون قد عرفها كطفلة. لكن يستحيل ان يكون قد بنى رغبته في الزواج منها الا على ركيزة الجشع والطموح. ووافقت حزينة على كلام تيريزا حين قالت:

«اجل لربما كان يعرفني الى حد ما لكن. . .».

سمعت هدير محرك سيارة وراء بوابة الباحة فتوقفت عن الكلام ونظرت وتيريزا الى النافذة. وسمع وقع خطى الخادمة الخافت في الممشى وما هي الا ثوان قليلة حتى علا صوتان عكرا سكون الحديقة المشمسة وقالت تيريزا بصوت ناعم:

«انها ماريا».

فنهضت وقد بدا القلق في عينيها:

«كنت اجهل انها قادمة يا خواليتا. اقسم لك انني كنت جاهلة قدومها».

«انا متأكدة انك كنت تجهلين قدومها».

قالت جيني وابتسمت ثم وضعت يداً مواسية على ذراعها:

«لربما قدمت لركوب الخيل برفقة انطونيو وزوجك».

«اذن هي ليست محظوظة».

قالت تيريزا جملتها وكأنها سرت غماً لهذه الفكرة ثم استدارت

لترحب بزائرتها غير المرغوب فيها.

ودخلت ماريا الغرفة دخول المعتاد على المنزل وفوجئت جيني عندما رأتها مرتدية ثوباً رسمياً لا بد انها دفعت ثمنه ثروة في احد متاجر باريس ومن الواضح انها لم تأت لركوب الخيل.

ورحبت ماريا بمضيفتها بسرعة ثم نظرت الى جيني بطريقة لم تخف فيها استياءها لتواجدها في هذا المكان اضافة الى ارتيابها بدوافع جيني في المجيء. ولم تمد لها يدها للمصافحة بل اكتفت بهز رأسها والقت نظرة ازدراء على فستان جيني البسيط وشعرها الأحمر الذي بعثرته الريح.

وقالت بصوتها البارد والقاسي:

«لقد فهمت الآن من صاحب السيارة الغريبة في الخارج اظن اني لم اعرفها».

وافترت شفتاها عن ابتسامة متوترة ثم تابعت:

«اذن قدت السيارة بنفسك الى هنا؟».

كان التلميح هذا واضح المعالم وثارت غريزة جيني على ازدراء ماريا لها. لم تكن تعرف عن ماريا غازاريس الا القليل لكنها ادركت من دون تردد انها تكرهها بشدة. ولم يكن كرهها هذا متعلقاً بكونها تصلح زوجة رائعة لرجل كانطونيو، لا، بل كانت تكره بكل بساطة، طريقة معاملة ماريا لها. وقالت جيني بهدوء:

«غادر انطونيو المنزل قبل ان اقرر المجيء».

واحست بفضول تيريزا لسماعها المزيد فتابعت:

«هذا الجو الحار يجعلني اتكاسل وتجدر الاشارة الى ان انطونيو ليس اكثر الرجال صبراً».

وايقنت في قرارة نفسها انه من السخف بمكان ان تستطرد في هذا النوع من الجدل لكن شيئاً ما في ماريا كان يحرك فيها اسوأ نزوات طبعها وتكهنت ان تيريزا لا تمانع في ان تكذب جيني بعض الشيء. ولم تكن تستهوي ماريا كثيراً او هكذا تراءى لجيني.

وقالت لها ماريا بصوت لم يخل من الاحتقار:

«لم اره في حياته نافذ الصبر لربما لاني لا اتصرف معه بطريقة تفقده صبره».

«معقول كلامك. اخشى اني افقده صوابه احياناً. لكن اظن انه لا يمانع».

وقهقهت جيني كالطفل واحست بالخجل من تصرفاتها. لكن تيريزا وافقت على كلامها قائلة:

«بالطبع لا، يا صديقتي».

ثم التفتت وابتسمت لماريا التي لم تكن مسرورة قط وقالت:

«هلا جلست يا ماريا».

هزت ماريا رأسها بسرعة رافضة الدعوة ووقفت في الباب وقالت:

«كنت ارجو ان اجد طونيو هنا. تعطل محرك سيارتي وكنت آمل ان يوصلني الى البيت».

آهاه! تأكدت جيني مما يجول في ذهن ماريا. فهي عازمة على البقاء برفقة انطونيو اليوم وان لم تركب الخيل معه بل ستجعله يوصلها الى البيت بسيارته. وابتسمت بمكر بعد ان ادركت انها لن تستطيع مقاومة اغراء تحدي ماريا وكانت متأكدة من وقوف تيريزا بجانبها فقالت مشيرة الى ذراعها المفصلة:

«كنت آمل ان يوصلني انا الى البيت. محرك سيارتي يعمل بصورة طبيعية لكن ذراعي تؤلمني كثيراً ولا اظنني قادرة على تحمل تلك الطرقات الملتوية والقاسية».

كانت ذراعها حقاً تؤلمها ولم تكن ترغب في القيادة عائدة الى البيت لكنها كانت متأكدة انها لو اضطرت لكان في استطاعتها تحمل الطريق من دون اي شك. لكن كل ما في الأمر ان شيئاً ما في تصرفات ماريا كان يثير سخطها وقد اختلقت القصة هذه لتوها ولم يعد في وسعها التراجع عنها. ورأت ماريا تقطب حاجبيها وتقول:

«ان كنت حقاً عاجزة عن القيادة وذراعك مصابة فمن الأفضل لك الا تقطعي هذه المسافة البعيدة».

واومأت جيني ايجاباً ثم وافقت متهكمة:

«اظن انك على حق».

وسألتها ماريا مجدداً:

«هل انت عاجزة فعلاً عن القيادة؟».

ورفعت جيني كتفيها وقد وجدت ان هذه الحركة اللاتينية مفيدة للغاية متى كانت غير راغبة في الاجابة.

وضعت تيريزا يداً على ذراعها السليمة وقالت:

«لا يصح ابداً ان تحاولي القيادة. وانا متأكدة ان طونيو سوف يغضب كثيراً اذا ما حاولت».

وادركت جيني بمرارة انه سيغضب في الحالتين وبدأت تندم على اختلاقها القصة لادراكها ان ماريا غازاريس احق منها في نيل مساعدته الآن وسيعتبر طلبها من باب الازعاج وقد يرفض حتى ان يرافقها بل يدعوها الى القيادة بنفسها بغض النظر عن آلام ذراعها لكنها لم تستطع تصوره مقدماً على شيء كهذا. واياً تكن عيوبه فهو لم يتصرف معها بقساوة متعمدة قط بل كان مهتماً فعلاً بشفائها.

وهزت رأسها وتمنت لو استطاعت ان تتراجع عن القصة بكاملها، لم تتعود التصرف بخبث وكرهت نفسها لتصرفها وكأنها حبيبة تغار في حين انه لا يحق لها ذلك. وقالت:

«اعتقد انه في استطاعتي تدبير امري».

ورمقت ماريا بطرف عينها. فاجابتها ماريا بصوت قاس:

«لا اشك في كونك قادرة على العودة بمفردك».

لكن تيريزا كانت تنصت الى الخارج ونهضت رامقة جيني بنظرة ظافرة وقالت:

«اظن ان خوسيه وطونيو قد عادا. وسنرى ما رأي طونيو بعودتك الى المنزل بمفردك. يا صديقتي».

ورمقتها جيني متوسلة:

«تيريزا».

لكن تيريزا قاطعتها:

«سيغضب اذا قدت السيارة وذراعك هكذا. لكنه لن يتوقع منك ان تقودي السيارة عائدة الى البيت يا خوانيتا. انا متأكدة من ذلك».

وعبر الرجلان الباحة وهما يتحدثان وحين سمعت جيني صوت انطونيو العميق الهادئ، يتكلم بيسر وطلاقة احست بخفقان قلبها يتسارع بجنون، كان صوته جزء من جاذبيته وكانت اللغة الاسبانية تناسب رنين صوته العميق اكثر من الانكليزية. وقد اضفت عليه جزمته الطويلة وسرواله القصير طابعاً من الرجولة التي غالباً ما كانت تثير مشاعرها كذلك قميصه الأبيض الملتصق بصدره العريض.

اجتاز خوسيه غارسيا الغرفة في اعجاب ورحب بضيفتيه فيما وقف انطونيو في الباب قرب ماريا لكنه راح ينظر الى جيني مندهشاً لوجودها هنا. وقال لها بصوت هادئ:

«لم انتبه الى سيارتك».

وهزت رأسها:

«ظننت ان الوقت حان لاقود سيارتي بنفسي».

ثم ضحكت ضحكة مضطربة وقصيرة. ولم تكن متأكدة من نوايا تيريزا

وسارعت تيريزا الى التكلم بعد ان رمقت ماريا بنظرة ظافرة:

«كان من الأفضل لها الا تقوم بعمل متهور كهذا اذ ان ذراعها تؤلمها الآن. يا طونيو».

«تؤلمها؟!».

وتوجه انطونيو نحو الكرسي حيث جلست فيما قطبت ماريا حاجبيها استياء. وسارعت جيني الى تطمينه:

«لا داعي للقلق!».

لكنه وقف كالمارد يطل عليها حاجباً نور النوافذ خلفه ثم امسك

ذراعها المصابة بلطف ونظر الى الضمادة مقطباً حاجبيه وسألها:
«هل تؤلمك ذراعك؟».
واضطرت ان تصارحه فأومأت ايجاباً. لكنه تابع:
«وعلى رغم كل هذا قدت السيارة كل هذه المسافة».
«لم اتصور ان ذراعي ستؤلمني بهذا الشكل».
وكانت تشعر بالاضطراب الشديد لملامسة انامله السمر القوية لذراعها. وذعرت لكثرة تجاوبها الحسي معه. بدا وكأنه لم يلامسها منذ اشهر وكادت ان تنسى تأثير ملامسته.
نظر اليها محدقاً ثم هز رأسه وافتر ثغره عن ابتسامة طفيفة حول الحق في اتجاهها وقال بصوت رقيق:
«يا ايتها الحمقاء الصغيرة، الن تتعلمي يوماً من اخطائك؟».
واعترضت على كلامه قائلة:
«لا افهم قصدك. كان علي ان احاول. اليس كذلك؟ رغبت في القدوم لزيارة تيريزا».
«كان من الأفضل لك لو جئت برفقتي».
ورفعت نظرها اليه مجدداً لكنها اخفضته بسرعة حين رأت لطافة نظرته ونعومتها ولم تكن قد رأتها هكذا الا مرة واحدة من قبل. وقالت له بصوت خافت:
«لم اكن على علم انك قادم الى هنا. لم اعلم اين كنت».
واجابها بصوت رقيق:
«لو شئت معرفة مكاني لكان سهل عليك ان تجديه. يا صغيرتي. لقد قطعت عهداً لك وسأتقيد به ما دمت ترغبين في ذلك لكن حالما تقررين...».
ورفع كتفيه العريضتين ثم استقام وهو تمسك بذراعها المصابة بين اصابعه القوية واللطيفة وقال:
«سأوصلك الى البيت».
ثم نظر الى خوسيه غارسيا وسأله:

«هل تمانع في بقاء سيارة جيني هنا يا صديقي؟».
ورفع خوسيه كتفيه وبسط ذراعيه مؤكداً عدم ممانعته ثم ابتسم لجيني وقال بصوت رقيق:
«حسناً يا آنستي».
ولم تحاول جيني فهم قصده لكنها احست من جديد انه يسيء فهم علاقتها بانطونيو.
«طونيو».
والتفت انطونيو ونظر الى ماريا وكأنه يعتذر منها مبتسماً وتوجه نحوها وقد ادار ظهره لجيني كي لا يتسنى لها رؤية وجهه.
«ما بك يا ماريا؟».
ودارت عينا ماريا الداكنتان نحو جيني بسرعة قبل ان تتكلم، وتكلمت بصوت ناعم ومقنع عن سيارتها متخلية تماماً عن النبرة القاسية التي كانت استعملتها منذ بضع دقائق:
«لقد تعطل محرك سيارتي».
ووضعت يدها على ذراعه بأسلوب امتلاكي واضح والتفت اناملها الرشيقة على البشرة السمراء وكأنها تستمتع بملامسته. وسألته وكأنها تحاول اظهار حقها في امتلاكه:
«هل في امكانك القاء نظرة عليه يا حبيبي؟».
بدا انطونيو وكأنه انزعج من لفظة التحبب التي استعملتها، اذ رأت جيني انكماش عضلات ظهره تحت القميص وابعد ذراعه عنها بحركة ناعمة. وان كان قد تقبل مطالبتها له بتفحص محرك سيارتها لكنه امتعض للفظة «حبيبي» وقد دهشت جيني لامتعاضه لاعتقادها انه معتاد على سماعها منها، لكونهما عاشقين واجابها انطونيو بصوت بارد:
«لست ضليعاً في ميكانيكا السيارات يا ماريا. فلن يجدي نفعاً تفحصي لمحرك سيارتك لكني متأكد ان خوسيه مستعد للطلب من ميكانيكي ان يأتي لاصلاح المحرك. ويمكنني ايصالك الى المنزل ان

شئت».

لم يكن عرضه مشجعاً للغاية وتأسفت جيني على ماريا وقد صدها انطونيو بهذا الشكل. وملت ماريا يديها من جديد وامسكت بذراعه وغرزت اظفارها في بشرته وكأنها تتصرف بيأس ثم قالت له بصوت رقيق لم يخل من العتاب وبعينين متوسلتين:

«انطونيو يا حبيبي ارجوك لا تعاملني بقساوة».

وحاولت جيني الا تسمع والا ترى، لكنها شعرت ان تيريزا تتابع المشهد بفضول كبير. واعلمتها غريزتها ان ماريا قد بالغت في التمادي بدافع من حبها للامتلاك وخيم جو من السكون والجمود على الغرفة الواسعة اذ صمت الجميع لثوان عدة.

ثم فك انطونيو بلطف قبضة الاصابع عن ذراعه وتكلم بصوت خافت جداً حتى يتحاشى احراج ماريا إذا ما سمعت جيني كلماته وقال لها بصوت هادىء:

«اني آسف يا ماريا. لقد اخطأت لتصرفك بهذا الشكل».

كانت ماريا قد ارتكبت فعلاً الخطأ ذاته الذي ارتكبته جيني حين اعتقدت ان شعور انطونيو نحو ماريا اعمق مما هو عليه في الحقيقة. وما بدر منه تجاه ماريا لم يكن مرده لطاقة عاشق بل عن تعاطف مع صديق اساء فهم نواياه. وكأنه احس بخيبة امل طفيفة ورقيقة.

وراح قلب جيني يخفق بسرعة خانقة فيما نظرت الى ظهره القوي وعضت فجأة على شفتها حين اجتاحت ذهنها مئات من الافكار والتخيلات المذهلة، وبغض النظر عن بقية الشكوك التي راودتها تأكدت من ان انطونيو ليس مغرماً بماريا غازاريس وقد اكتسب الأمر هذا اهمية كبرى في نظر جيني.

لم تكن ملامح ماريا الداكنة جميلة بكل معنى الكلمة على رغم وسامتها الجذابة لكن التعبير الذي بان على وجهها حين ادركت انها كانت تسيء فهم علاقة انطونيو بها جعلها تبدو قبيحة جداً.

ووقفت في مكانها تواجهه ولم يكن بامكانها ان تتحاشى نظرته

المتعاطفة معها وتشنجت يداها بقوة فيما اومضت عيناها سخطاً لشعورها بالاهانة. واحست جيني بالشفقة ازاءها وقد حاول انطونيو جاهداً الا يخيب املها لكن لا بد ان تكون قد صدمت اعنف صدمة لكونها اهينت في حضور جيني.

وقال انطونيو بصوته الهادىء اللطيف بالانكليزية:

«يسرني ان اوصلك الى البيت، ان كنت راغبة في ذلك».

وراقبت جيني ماريا بطرف عينها وكانت تحاول السيطرة على غضبها وقد رسمت موجات العواطف خطوطاً قاسية على وجهها. ثم تنهدت بعمق والتوى وجهها محاولاً الابتسامة وقالت بصوت بارد وقاس:

«اني ازعجك يا سيدي».

واستدارت على كعبها شامخة الرأس مستقيمة الظهر باعتزاز وهمت بالخروج.

وادركت تيريزا فجأة ان احد ضيوفها على وشك الرحيل وتذكرت واجبها كمضيفة، فلحقت بها الى الممشى حيث وقفت واستدارت تتفحص جيني اولاً ثم خفضت عينيها لأنها لم تصادف في حياتها مقداراً مماثلاً من الكراهية كالتي تكنها لها ماريا غازاريس في هذه اللحظة، ثم ارتعشت وكأن جو الغرفة تحول فجأة الى صقيع مفزع.

ودوى صوت ماريا القاسي مودعاً مضيفتها وزوجها متجاهلاً جيني وانطونيو:

«الى اللقاء تيريزا، الى اللقاء سيد غارسيا».

«خوسيه».

التفتت تيريزا نحو زوجها وتذكرت جيني ادعاء ماريا ان سيارتها في حاجة الى اصلاح. ودنا خوسيه من ماريا لكن انطونيو استوقفه مخاطباً اياه بسرعة وبالاسبانية من غير ان تفهم جيني ما قاله.

لم تمض برهة حتى سمع صوت محرك سيارة يمزق السكون. واوماً

خوسيه بعلامة تفهم. وقال بصوت ناعم:
«صحيح!».
ثم رفع كتفيه.

٩ - منزل الصقر

استيقظت جيني في الصباح التالي باكراً على غير عادتها واحست بتململ لم تجهله من قبل. وعادت احداث البارحة الى ذاكرتها وبدت كأنها من نسج الخيال: بعد ان انجزت ماريا غازاريس خروجها الغاضب والمسرحي ندر الكلام وانتهت زيارة جيني بوقت اقصر مما توقعت. وتكلم خوسيه غارسيا وانطونيو عن البحيرة التي كان انطونيو ينوي شراءها واصغت اليهما تيريزا وجيني ولم تفتحا حديثاً في ما بينهما بيد ان سكوت جيني كان ملحوظاً وقد رمقتها تيريزا بنظرة او نظرتين فضوليتين.

لقد التزمت جيني الصمت ذاته في اثناء عودتها مع انطونيو في السيارة لكنه بدا غير متحمس للكلام هو ايضاً فتكهنت انه حزين بعض الشيء لاسلوب انفصاله عن ماريا. وبعد التفكير اعتقدت جيني انه كان في وسع انطونيو التخلي عنها باسلوب الطف وذلك بمجاراة رغبتها في امتلاكه في الاقل حتى لحظة انفرادهما معاً لكن اسلوب انطونيو في التعامل كان مختلفاً. وقد اخبرها ابوه انه رجل متهور سريع الانفعال واراد تفادي ان تحصل اية اساءة فهم لعلاقته بماريا.

وظلت جيني لبعض الوقت تشعر بالشفقة على ماريا فبرغم معاملتها لها كانت ماريا واثقة من ان انطونيو يحبها وقد صدمتها الحقيقة بقدر ما صدمت جيني. احست جيني انها عاجزة عن

الاسترخاء والتمتع بكسلها كعادتها بل عاودها شعور بالتململ والاثارة التي اقلقت بها. وما كان منها الا ان نهضت من السرير واستحمت ثم هبطت السلم. كان وقت الافطار لم يحن بعد وكان في وسعها التنزه في الباحة او الجلوس في ظل ازهار المانوليا. ورمقتها الخادمة ماتيلد بعينين حادتين وذاكتين فيما كانت تهبط السلم وتمتمت سلاماً ثم اختفت في مضاجع المنزل الداخلية. كان واضحاً انها لا تحبذ المستيقظين باكراً وتساءلت جيني فجأة اذا ما كان انطونيو قد افاق ايضاً. وقد اعتاد النهوض باكراً في الايام التي يمارس فيها الفروسية لكنه لربما لم يزعج نفسه اليوم بعد ان توقف عن رؤية ماريا.

وكانت متأكدة من انه لن يركب الخيل مع ماريا لانها لن تصفح عنه حتماً بهذه السهولة بعد ان اوضح لها علناً انه لا يشاركها الرأي في علاقتهما. وقد عجزت جيني تماماً عن تفهم ردة فعلها من لانفصالهما. وما سبّب سرورها هذا للفكرة ان ماريا خرجت نهائياً من حياة انطونيو.

القت نظرة على القاعة الكبيرة ولم تجد احداً فيها. ورفعت كتفيها ثم راحت تزرع البهو امام غرفتها خطوات قلقة حيث اعتادت حضور دروس الاسبانية ولم تكن واثقة من نفسها ان كانت ترغب في رؤيته او لا. كانت مرتبكة جداً في ما يتعلق بشعورها نحو انطونيو في هذا الصباح. وخيل اليها انها سمعت حركة خافتة في المكتب وقفز قلبها في صدرها حين تصورت انطونيو خارجاً من الغرفة ليصادقها امام الباب فاستدارت بسرعة وخرجت الى الباحة. رائحة الارض الدافئة والرطبة تعني ان البستاني روى الحدائق العطشى مستغلاً برودة الجو في الصباح الباكر وتنشقت رائحة التراب المنعشة الذكية بلهفة. تعودت على الحدائق بقدر تعودها على غرفتها وسارت ببطء حول الباحة المسورة بجدران عالية تستمتع بالعطور والالوان، مسترسلة في افكارها.

توجهت نحو ازهار المانوليا ذات العبير العابق ثم نحو اشجار

النخل الظليلة التي تطاولت فوق البرتقال الذي فاحت منه روائح عطرة. في هذا الوقت من السنة كانت ازهار الحديقة متفتحة وناضجة برمتها وقد تدلت رؤوس الورود المثقلة وتناثرت التويجات الحمر والبيض والصفر على ارض الباحة. كان المنظر رائع الجمال وكأنه من نسج الخيال واحست انها تحبه كما احبه جدها.

ووقفت تفكر بجدها في ظل شجرة ورد حمراء قانية شبيهة بتلك التي تكسو شرفتها. وكسرت عنق احدى الورود العابقة، بحركة لا شعورية، وراحت تفركها بين اناملها لبعض الوقت محاولة تذكر الظروف التي رأت فيها شخصاً يعامل الوردة بالطريقة ذاتها. ثم تذكرت وهزت برأسها مبتسمة حين عادت الى ذهنها صورة الوردة المقطوعة الرأس التي وضعها انطونيو في جيبه.

«جيني!»

فوجئت بسماع صوته في اللحظة التي كانت فيها تفكر فيه فالتفتت بسرعة والوردة بين يديها وقد اتسعت عيناها دهشة. وراح قلبها يخفق بسرعة جنونية وحدقت فيه لبعض الوقت، وكأنها غير مصدقة انه امامها.

«هل روعتك؟».

وقف قريباً منها وقد امتد يداً الى احد اعمدة الشرفة، وكان قريباً منها حتى انها اصطدمت به حين التفت ومد يده يساعدها على استعادة توازنها. ونظر اليها بعينين سوداوين فيهما مسحة لطيفة من المكر واشاحت النظر سريعاً بعيداً، وقد ارتابت لهياج اعصابها اثر ملامسته لها. وقالت له وقد ذعرت لتسارع خفقانها:

«لا. لم ارك قادماً. صباح الخير يا انطونيو».

ابقى يده على خصرها وحاولت الا تلاحظ نقل راحة يده عبر قماش ثوبها الرقيق.

وقال لها:

«لقد افقت باكراً جداً هذا الصباح».

وأومأت ايجاباً متسائلة عن رد فعله ان هي قررت الابتعاد عن لمسته المثيرة لاحاسيسها.

«شعرت بالتململ. ولم استطع المكوث في الداخل مدة اطول فنهضت».

وضحكت ضحكة قصيرة وحاولت العودة الى الواقع:

«لا اظن ان ماتيلد تحبذ هذه الفكرة ابداً».

وسألها:

«ولماذا لم تدخلي الغرفة وتسلمي علي عوضاً من التردد؟».

ثم ضحك بصوت رقيق حين رأى التعجب على وجهها وقال:

«سمعتك تسيرين في الممشى وتوقعت ان تدخلي ولكن...».

ورفع كتفيه.

«لم اعرف انك في الغرفة».

قالت وتمنت لو لم تكن مضطربة الى هذا الحد. ولاحظت انه لم يكن مرتدياً ثياب الفروسية بل كان يرتدي سروالاً ازرق داكناً والقميص الأبيض التقليدي. وتعرفت الى عطر مثير للاحساس فاح منه وادركت انه من نوع شائع من عطر ما بعد الحلاقة، حاد الرائحة واحست بانه كان يطغى على عطر ازهار الورود والمانوليا. وشعرت بين ذراعيه براحة واطمئنان لم تعهدهما من قبل وقد وقفت قريبة منه الى حد كانت تحس فيه بكل جسمه. واستغربت عدم مقاومتها لجاذبيته اليوم ومدى رغبتها في السماح له بمعانقتها بهذا الشكل.

ووضع يده الثانية تحت ذقنها ورفعها حتى واجهته وقال لها بصوت هادىء:

«لم تعرفي اني كنت في الغرفة. ظننت انك امتنعت عن الدخول لعلمك باني في الداخل ايتها الصغيرة. انني سعيد ان اكون قد اخطأت».

«انطونيو».

وانحنى رأسه بسرعة نحوها ومن دون انذار مسبق عانقها لوقت

طويل حتى انقطعت انفاسها ثم افلتها واحست بنفسه الدافىء حين تكلم مصححاً كلامها:

«طونيو - لقد طلبت منك مرات عدة ان تسميني طونيو يا خوانيتا. ألن تحاولي ارضائي ابداً؟».

احست جيني بدوار ينتابها وابقت عينيها مغمضتين فيما حاولت السيطرة على الموقف الذي ادركت انه يفلت منها شيئاً فشيئاً ودهشت لمقدار تجاوبها مع كل لمسة من لمساته هذا الصباح.

في الأيام القليلة المنصرمة وبعد ان اعلن نيته التوقف عن مطالبتها بالزواج منه راحت تشعر بفراغ عدم اهتمامه المتواصل بها واذا هو الآن يثير عواطفها بلطافة متناهية وادركت انها تتوق الى ان يعطيها اكثر واكثر من ذاته. كانت متلهفة لارضائه وذلك للمرة الأولى منذ وصولها. وقالت مذعنة:

«طونيو».

ثم خفضت عينيها ونظرت الى الوردة التي احتفظت بها بين يديها وقد بدأت تذبل لشدة الحرارة. وبدا لها فجأة انه ينبغي عليها ان تخبره عن لعبتها البارحة بانها كانت قادرة على القيادة وقد اختلقت القصة لا شعورياً. كان قد ادرك لعبة ماريا غازاريس حول العطل في سيارتها وتعجبت كيف انه لم يكتشف لعبتها.

واستصعبت التكلم عن ماريا خوفاً من ان يعتبر كلامها مؤذياً لها... وفي مثل هذه الظروف لا يصح التكلم عن ماريا بسوء فهو وان لم يكن مغرماً بها لا بد انه يكن لها مودة كبيرة لكونها صديقة قديمة له. وقد يستاء منها اذا تطرقت الى موضوع ماريا وكانت ترغب في تفادي اثارة غضبه بأي ثمن هذا الصباح.

ولم تنبس بكلمة لثوان عدة ثم عقدت العزم ونظرت الى الوردة الذابلة بين اصابعها وقالت له:

«اريد ان اعترف لك بأمر مهم».

وحاولت جاهدة ايجاد كلمات اخرى للتعبير عن خوالجها باسلوب

اقل مأساوية لكنها لم تفلح. وراح ينظر اليها من دون ان يقطب حاجبيه بريبة كما توقعت ان يفعل بل ابتسم ابتسامة لم تخل من المكر ورفع حاجبيه بفضول وسألها بلطف:

«ماذا يا عماتي؟».

وادركت ان لفظة التحبب هذه تستعمل عادة بين العشاق لكنها لم تعترض عليها بل بلعت ريقها بقوة للسيطرة على الدوار الذي اجتاحها وابتدأت تقول:

«بالأمس، عندما... عندما قالت تيريزا اني عاجزة عن القيادة...».

وقاطعها مصححاً كلامها بصوت رقيق:

«قالت تيريزا ان ذراعك تؤلمك وانا الذي قررت انك عاجزة عن القيادة».

ونظرت اليه في ارتباك للحظة ثم ادركت انه على حق:

«اجل... اجل صحيح ما تقول لكن قبل ذلك...».

وتوقفت تتساءل هل يتوجب عليها المتابعة وادركت انها لا تستطيع التراجع بعد ان بلغت هذا الحد.

وتكهن بصوت هادئ:

«قلت لماريا انك عاجزة عن القيادة. لقد تكهنت ان شيئاً كهذا قد حصل بينكما. اذ ليس من عادات ماريا ان تتصرف بهذا الاسلوب في حضرة الناس. او ان تدعي هذا الادعاء الكاذب عن تعطل سيارتها».

وضحك بمكر ثم هز رأسه. وادركت جيني لتوها ان ذراعه قد شدتها نحوه اكثر فاكثر اذ احست بصدى ضحكته يهزها.

«كنت عالماً بالأمر».

وكان واضحاً من الطريقة التي تصرف بها خوسيه غارسيا انه عالم بالامر لكنها لم تتوقع منه ان يعترف بهذه السهولة.

«طبعاً كنت عالماً بالأمر يا حبيبتي. ماريا لا تحسن التمثيل».

ورفع ذقنها من جديد وطاف بنظره الحار على قسمات ثغرها مما جعل قلبها يخفق بسرعة جنونية ثم تابع:

«اما انت يا حبيبتي الغالية. فاظن انك بارعة في اخفاء شعورك الحقيقي. أليس كذلك؟».

وفضلت جيني الا تجيب عن سؤاله في هذه اللحظة. وكانت مضطربة الى حد كبير فلاقت صعوبة جمة في التفكير السليم. وقالت:

«لقد قسوت على الآنسة غازاريس المسكينة».

وحاولت ترطيب شفتيها اللتين ازداد جفافهما حين شعرت بازدياد طفيف في قبضة ذراعيه حولها.

«وماذا بعد؟».

ولم ترشدها هذه الكلمة الى رأيه في انتقادها له ورمقت ملامحه الصقرية القاسية التي كانت في ظل الشرفة فوقها وبدت داكنة وبدائية جداً وكأنها صدى لاجداده العرب واثارت احساسها حتى انقطعت انفاسها وقالت:

«ظننت انك مغرم بها».

وتعجبت لتجرؤها على البوح له بهذا الأمر وخشيت ان تثير استياءه.

وشددت ذراعاه التفافهما حولها وحبست انفاسها حين التصق وجهها بصدره العريض والدافئ. اغمضت جيني عينيها ثم فتحتهما من جديد حين سمعته يقول:

«لم اقل شيئاً عن مدى علاقتي بماريا. انت قررت عني يا ايتها الحمقاء الصغيرة».

«ولكن...».

ومالت برأسها الى الوراء فانتفض شعرها الاحمر عن وجهها واتسعت عيناها الخضراوان فضولاً وبرقتا من الاثارة وقالت له:

«لقد اخبرتني في اثناء كلامك عن الزواج انه لا مانع لديك في ان ترمي عصفورين بحجر واحد».

وبرقت عيناه حين نظر اليها فارتعشت. وتنهد واكفهر وجهه وقال:
«كنت اتمنى لو استطعت رمي عصفورين بحجر واحد. لكنك رفضتني يا جيني اليس كذلك؟».
وصمتت جيني لوهلة لكن مئات الاسباب راحت تجول في ذهنها تنصحها بالابتعاد عنه ورفعت عينيها تنظر اليه فوجدت صعوبة اكبر في متابعة الكلام. وقالت له بصوت خافت:
«لم ار طريقة اخرى تستطيع من خلالها الحصول على ما تريد وعلى الفتاة التي تحبها. كنت تريد الزواج مني من اجل حصتي في المؤسسة».
واجابها بصوت رقيق:
«كانت هناك اسباب ثلاثة وراء رغبتي في الزواج منك».
وراح يعدد الاسباب الواحد تلو الآخر ويعانقها كلما اورد سبباً:
«كنت مهتماً بادىء الأمر بحصتك في مؤسسة فرنسيسكو وابنه ثم كانت هناك مشيئة جدي واخيراً يا ايتها الحمقاء الحبيبة لانك كنت ذات صباح واقفة على شرفة غرفتك وكنت راحلاً لركوب الخيل. وحين التفت كي اقفل البوابة رأيتك في اطار النافذة بجمالك الرائع ونعومتك ولطافتك وادركت اني مغرم بك».
ونظرت اليه جيني مدهوشة لكنها غير مفاجأة كثيراً بما قاله لانها لو تنبهت في ذاك الوقت الى المناسبات العديدة التي كان في امكانها ان تلمس حقيقة شعوره نحوها لكان سهلاً عليها ان تعرف، كذاك الصباح الذي تكلم عنه حين احست انه سعيد وتبسم على غير عادته لما ابتسم لها وناداها.
ثم فكرت في المناسبات التي كان في امكانه ان يستغلها للبوح لها بحقيقة شعوره وهزت رأسها. ثم همست لاهثة:
«لكنك لم تخبرني عن حبك لي».
وهز رأسه رافعاً حاجبيه بارتياب ثم سألها برقة:

«وهل كنت صدقت كلامي يا حبيبتي؟».
وهزت جيني رأسها نفياً فتابع:
«وكنت ميالة اكثر الى التصديق اني اريد الزواج منك من اجل حصتك فقط. اليس كذلك؟».
وصمتت جيني لبعض الوقت وقد رقدت اناملها لا شعورياً عند فتحة قميصه وراحت ترسم خطوط القبة على بشرته الذهبية لا شعورياً.
وقالت اخيراً بصوت خافت:
«الربما ما زلت تخادعني الى الآن».
وفوجئت به يعانقها بقوة وحاولت غريزياً مقاومته لبضع ثوان ثم استسلمت، واحست بقوة ذراعيه الجبارة تشدها نحوه حتى خيل اليها انه سيسحقها. ورفعت ذراعيها ولفتهما حول عنقه موقعة الوردة الحمراء على الأرض. وسألها بصوت عميق متلهف ارتعشت له:
«اما زلت تعتقدين اني مهتم بك من اجل حصتك فقط؟».
«طونيو...»
وضحك ضحكة ظافرة وشدها نحوه فالتصق وجهها مجدداً بصدره المذهب العريض. واغمضت عينيها تعانقه كما عانقته على صهوة الجواد وسمعته يقول لها:
«اعيدي لفظ اسمي يا حياتي. هذه المرة الأولى تلفظين فيها اسمي بملء ارادتك. اعيدي».
«طونيو... طونيو».
وغرق وجهها في صدره ثم نظرت اليه مجدداً بعينين براقتين وشعرت بدوار رهيب وكأنها تعيش حلماً لا واقعاً. وتفحصت عيناها ملامحه الصقرية الداكنة تتوقف بحب عند كل منها. ثم ضحكت برقة واحنت رأسها الى الوراء فتساقط شعرها الأحمر على كتفيها. وقالت لاهثة:
«قلت اني اكرهك كرهاً عظيماً. ولم ادرك اني احبك حباً اعظم».

وسألها بصوت رقيق:
«الم اخبرك بهذا يا حبيبتي. الم اخبرك مرات عدة بأنك لا تكرهينني».
وعند سماعها كلمة كره عادت الى ذاكرتها دونا صوفيا وكرهها لها فخفضت رأسها من جديد ترسم خطوطاً وهمية على بشرة صدره العريض وقالت:
«لا اظن ان عمتي صوفيا ستسعد بي... بناه».
ورفع انطونيو ذقنها واجبرها على النظر اليه وقد امتلأت عيناها بريقاً دافئاً مطمئناً بعث الاحمرار الى خديها وقال لها برقة:
«لن تزعجك امي يا حبيبتي. فلن نسكن في البيت هذا ولن تضطري الى تمضية اوقاتك برفقتها. اني ادرك ان هذا لن يسعدك».
«ولكن طوني...».
ووضع اصبعه على شفتيها ثم ابتسم ورفع حاجبيه بمكر وقال لها:
«من بين الصفات القبيحة التي تعتني بها يا حبيبتي أنك قلت لي ذات مرة انني اشبه طائراً مفترساً ينتظر لحظة الانقضاض عليك. اليس كذلك؟».
وضحكت جيني بطلاقة واومأت برأسها:
«اجل قلت لك ذلك حين كنت تحاول تعليمي الاسبانية».
«وستتابعين تعلمها. لكني تذكرت ملاحظتك هذه في اثناء بحثي عن منزل نقطنه يا خوانيتا».
وحدقت فيه جيني لبعض الوقت وسألته:
«لقد اشتريت منزلاً؟».
وتصورت رد فعلها لو كان اخبرها بهذا الشيء قبل بضعة ايام:
«لكنك لم تكن تعرف اني...».
وعانقها مطولاً وبقوة ثم ابتسم وبرقت عيناه.
«طبعاً. كنت اعرف. الم اعرف طوال الوقت يا حبيبتي».
واومأت جيني موافقة وعانقها مدركاً انها لا تستطيع الاجابة ثم

تابع:
«هذا المنزل الريفي. انني متأكد انه سينال موافقتك. فهو يقع بالقرب من ستران وسيسرك ذلك».
وضحك برقة وعانقها. وتابع بالاسبانية:
«وسيسرك ايضاً متى علمت ان اسمه يليق بطائر مفترس يطوي جناحيه يا صغيرتي واسمه «منزل الصقر».
ورددت جيني وراءه بالانكليزية:
«منزل الصقر».
ونظر اليها بعيني براقتين:
«سوف احبه يا طوني. انني متأكدة انني سوف احبه».
وسألها انطونيو برقة:
«كما تحبينني؟».
واومأت برأسها فيما رفعت ثغرها نحوه وهمست:
«كما احبك».